القصر المسحور

توفيق الحكيم وطه حسين

القصر المسحور

تأليف
توفيق الحكيم وطه حسين

هنداوي

القصر المسحور

توفيق الحكيم وطه حسين

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ‎+ ٤٤ (٠) ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٣٣٢٥ ٣

صدر هذا الكتاب عام ١٩٣٦.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٣.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة لأسرة كل من السيد الدكتور طه حسين والسيد الأستاذ توفيق الحكيم.

المحتويات

الإهداء ٧
سَمير شهرزاد ٩
سجين شهرزاد ١٩
من شهرزاد ٣١
إلى شهرزاد ٣٧
في الحمَّام ٤٣
ثورة الأشباح ٤٩
محنة توفيق الحكيم ٥٥
في حضرة شهرزاد ٦٥
القلق على توفيق الحكيم ٧٣
شكوى شهرزاد ٧٧
مواساة شهرزاد ٨١
في الحبس الاحتياطي ٨٧
المحاكمة ٩٥
الدفاع ١٠١
غضب شهرزاد ١٠٥
حكم الزمان ١١١

الإهداء

إلى

التي كانت تشيِّع ذهابنا إلى القصر المسحور وتتلقَّى عودتنا منه بنظرات حائرة وبسمات ساخرة، ولكن فيها مع ذلك الرحمة والإشفاق والتشجيع؛ لأنها تعرف كيف تحيي زهرات الأدب وتبعث نشاط الأدباء … إلى: مدام طه حسين … نرفع حديث القصر المسحور.

توفيق الحكيم وطه حسين

«سالنش ١٩٣٦م»

سَمير شهرزاد

«من مأمنه يُؤتَى الحذِر.» كذلك قالت حكمة القدماء … وأَبَت الظروف إلا أن أكون أنا الدليل الناصع على صدق ما قالت حكمة القدماء. فقد ضقت بالحياة العنيفة المفعمة بألوان النشاط المختلفة في مصر حتى لم أستطع لها احتمالًا، وحتى ضعف كل جسمي وانهدَّت لها قواي، وعجزَتْ لها أعصابي عن المقاومة، فأصبحتُ سريع الغضب سريع الرضا، سريع الانفعال بوجه عام، حتى أنكرتُ نفسي وأنكرني الناس، ولم أرَ بدًّا من أن أفرَّ بما بقي لي من قوة العقل والجسم إلى مكان بعيد أخلو فيه إلى نفسي، وأستريح فيه من هذه الجهود المتصلة، وأستردُّ فيه بعض ما أنفقتُ من القوة، حتى إذا استجمعت منه حظًّا لا بأس به؛ عدتُ إلى مصر فأنفقته مرة أخرى في غير تقصير ولا اقتصاد.

من أجل هذا كله عبرت البحر ومررت بباريس مرًّا سريعًا كأنه مرُّ الطيف، فلم يرني الحي اللاتيني إلا مرة أو مرتين. ثم أويت إلى هذه القرية النائية المنزوية في عِطف من أعطاف الجبل، إلى هذه القرية التي لا يعرفها المصريون، والتي يمرون بها في طريقهم إلى المصايف المعروفة دون أن يخطر لهم الوقوف عندها أو الإقامة فيها. واخترت مع أهلي فندقًا متواضعًا متوسط الحال لا تشغل أهلَه هذه الحركاتُ العنيفة التي تشغل المصطافين، ولا يخطر لمصري أن يأوي إليه إن ألمَّ بهذه القرية خطأ؛ لأن المصريين في العادة إذا عبروا البحر لا يأوون إلا إلى الفنادق الفخمة التي يكثر فيها الفرح والمرح، ويُظَن بأهلها الغنى والثروة وتعوُّد الترف والنعيم.

ولما بلغت الفندق أكرهت صاحبي على أن يختار لنفسه — أو اخترت له أنا — غرفة في الطابق الأعلى لا يصعد إليه أحد إلا الذين لا يَكلَفون بالراحة ولا يشفقون من الجهد؛ لأن غرفة صاحبي إذا كنا في أوروبا هي في الوقت نفسه الملجأ الذي ألجأ إليه إذا أردت القراءة أو الإملاء.

وكذلك اعتقدت، وكان لي الحق أن أعتقد، أني قد أَمِنت الضجيج والعجيج، وضمنت الراحة والهدوء، وأعددت لنفسي ما أنا محتاج إليه لأسترد النشاط من جهة، ولأعوِّض الوقت الضائع من جهة أخرى، فأقرأ كثيرًا وأكتب قليلًا.

وإني لمع صاحبي ذات يوم قد خلونا إلى ديوان من دواوين الشعر ننظر فيه، وانقطعت الصلة بيننا وبين العالم الخارجي حتى ما نسمع هفيف الريح ولا حفيف الأغصان، ولا غناء الطير ولا صياح الأطفال الذين يلعبون في حديقة الفندق، وإذا الباب يُطرَق طرقًا خفيفًا لا نَحفِل به ولا نلتفت إليه، نظن أنه لا يعنينا وإنما يعني الغرفة المجاورة، ولكن الطَّرق يتصل ويُلِح، ثم يشتدُّ شيئًا فشيئًا، ثم يضطرني إلى أن ألتفت، ويَضطر صاحبي إلى أن يضع الكتاب، ثم يَضطره إلى أن ينهض فيفتح الباب ليرى ما دونه، وكان قد أغلقه فأحكم إغلاقه إيثارًا للعافية وإغراقًا في التحفُّظ والاحتياط، ولم يكد صاحبي يفتح الباب حتى رأى شخصًا غريبًا كان يُقدِّر أن يرى كل إنسان وأن يرى كل شيء دون أن يراه؛ شخصًا شرقيًّا في زِي أهل العراق لم يعرفه قط، وهو من أجل ذلك ينكره أشد الإنكار وينكر وجوده في هذه القرية المنعزلة، وينكر اهتداءه إلى هذا الفندق وصعوده إلى هذا الطابق وطَرْقه باب هذه الغرفة.

وكان صاحبي مقتنعًا بأن هذا الشخص قد أخطأ طريقه وجار عن سبيله، وقصد إلى غير مَقصِد، ولكن الشخص يسأله عني ويدفع إليه كتابًا يطلب منه أن يتلوه عليَّ، فيعود صاحبي إليَّ حيران دهشًا، قد كاد يدركه الاختلاط لولا أنه تعوَّد مثل هذه المفاجآت منذ امتحنَتْه الأحداث بمصاحبتي، فهو يفضُّ الكتاب ويقرأ عليَّ هذه الأسطر:

«**سيدي**

علمت اليوم أنك معتزل في عِطف من أعطاف هذا الجبل الذي أصطاف قريبًا من قمته، فنازعتني نفسي إلى أن أراك، ثم دفعتني نفسي إلى رؤيتك دفعًا لم أجد عنه مندوحة، وكنت أحب أن أسعى إليك حتى لا أكلفك مشقة الحركة وجهد الانتقال، ولكني آثرت أن تسعى إليَّ حتى لا أكلفك مشقة هي أثقل على نفسك فيما أعتقد من المشقة الأولى؛ لأنها معنوية، فأنت تكره من غير شك أن تسعى سيدة للقائك، وأدبك يفرض عليك أن تسعى أنت للقائها. وإذن فأنا أكتب إليك راجية أن تتفضل فتتهيأ للقائي، ولكني أحب أن تعلم أني لا أُزار إلا حين منتصف الليل، وأن زيارتي لن تكلفك جهدًا ولا عناء، فإذا تقدم الليل وكاد ينتصف فانتظر متهيِّئًا للخروج. ولك أن تصطحب هذا الفتى الذي يلزمك لزوم الظل إن لم ترَ

من اصطحابه بدًّا، ولك أن تتركه إن كنت قد ضقت به كما تضيق بكثير من الناس وبكثير من الأشياء من حين إلى حين، فأنا أعرف من أمرك يا سيدي أكثر مما تظن … وتقبَّل تحية المَشوقة إلى لقائك.»

شهرزاد

أظنك أيها القارئ العزيز غير محتاج إلى أن أصف لك ما أدركني من الدَّهَش وما أدرك صاحبي من الذهول، ولكن دهشي وذهول صاحبي تجاوزا حدَّهما حين التفت صاحبي فلم يرَ الفتى العراقي الذي حمل إلينا الكتاب، وحين التمسه في الفندق لم يرَ له أثرًا، وحين سأل عنه أصحاب الفندق ظهر له أنهم لم يَرَوه ولم يُحِسوه ولم يعرفوا له خبرًا، وأن أحدًا لم يسألهم عن مكاننا، وأنهم لم يدلُّوا أحدًا على هذا المكان.

كاد الدهش والذهول ينتهيان بصاحبي وبي إلى الجنون أو إلى ما هو أكثر من الجنون، وقد خُيِّل إلينا لحظة أن خيالًا من هذه الخيالات التي تملأ الضمائر وتُنكِرها نفوسنا الشاعرة قد عبث بنا، وأن الذي أثار هذا الخيال هو حضور الأستاذ توفيق الحكيم إلى قريتنا منذ يومين.

فقد حضر صديقنا توفيق الحكيم إلى هذه القرية في قصة لعلك تظهر عليها وقتًا ما، ومنذ انتهى إلينا كثر الحديث بالطبع عن «أهل الكهف»، و«شهر زاد»، و«عودة الروح» وما يتصل بذلك كله من الأدب والنقد والإنتاج والتقصير، وكل هذا العناء الذي فررنا منه إلى فرنسا مُقسِمَين أن نتجنبه في أثناء الصيف. فخُيِّل إلى صاحبي وإليَّ أن كثرة الحديث في الأدب وفي أبطال توفيق الحكيم قد سحرت عقولنا وصورت لنا كل هذا القَصص الذي عرضته عليك، ولكن الكتاب كان بين يدَي صاحبي يمسه بيديه ويراه بعينيه، ويقرأ عليَّ ما فيه من الكلام.

وجعلنا كلما تقدم النهار ودَنَونا من المساء اشتد اضطرابنا وامتلأت قلوبنا وجلًا ورعبًا حتى أنكَرَنا خُلطاؤنا، وأشفق عليَّ أهلي وخُيِّل إليهم أني أتهيَّأ لعلة من العلل أو للون من ألوان الحُمى.

ولست أخفي عليك أني اجتهدت كما اجتهد صاحبي في أن نخفي هذه القصة على من حولنا مخافة أن يُظَن بنا الجنون، وأن نُدخِل الرَّوع على قوم آمنين.

ومن عادتنا إذا رفعنا أيدينا عن طعام العشاء أن نمشي قليلًا في طريق من هذه الطرق الجبلية نستمتع بهذا الهواء الطلق الأَرِج، ثم نعود إلى مخبئنا فنخلو إلى كتبنا حتى يدعونا

النوم إلى أن نستريح. وقد جهدنا برغم ما كان يملأ قلبَينا من هذا الخوف المتزايد من لحظة إلى لحظة في أن نُجرِي الأمور كما تعودنا أن نُجرِيها دون أن نغيِّر شيئًا مما أَلِفنا.

فلما أوينا آخر الأمر إلى غرفتنا الشاهقة في السماء لم نقرأ صحيفة ولم نفتح كتابًا ولم ننظر في ديوان، وإنما لبثنا فيما كنا فيه من دهش وحيرة وذهول ننتظر أحد الخطرين؛ فإما أن يتحقق ما أنبَأَنا به الكتابُ، وإذن فالله وحده يعلم ما وراء ذلك، وإما أن يتكشَّف الأمر عن لا شيء، فينتصف الليل وكأننا لم نتسلم كتابًا، ولم نتلقَّ دعوة، ولم نتعرض لخطر ولم نُحِس خوفًا، وإذن فهو الشر الذي ليس بعده شر، هو الجنون الذي لا يختص به فرد من الأفراد، وإنما يشترك فيه اثنان.

وهذه دقات إحدى عشرة تنبئنا بأن انتصاف الليل ليس بعيدًا، وهذا العرق البارد يسيل على جبهتَينا، وها نحن هذان نتكلَّف الجَلَد، ونأبى على أسناننا أن تَصِر، وعلى فرائصنا أن ترتعد، ولكن ماذا! هذا الباب يُطرَق طرقًا خفيفًا، ثم يُفتَح دون أن نأذن بالدخول، ثم ... ونُفيق، وإذا نحن في مكان غير المكان الذي أنفقنا فيه أول الليل، ولكن الغريب أننا لا ننكر أنفسنا ولا نُحِس خوفًا ولا وجلًا، ولا نجد إلا ما يجده الزائر لإنسان ذي خطر من هذا التهيُّب اليسير الذي يشغله في أثناء الانتظار أن يُؤذَن له.

ولا يطول هذا الانتظار، وإنما هو قصير جدًّا لا يتيح لنا أن نتبيَّن الغرفة التي ننتظر فيها والأثاث الذي يحيط بنا.

فهذا باب يُفتَح في جانب من جوانب الغرفة، وهذه فتاة رشيقة أنيقة تدخل منه مشيرة قائلة في خفة وفي لهجة عربية فصيحة عذبة: «هل لهذين السيدين أن يتبعاني؟» فنتبعها آمنَين مطمئنَّين كما تعودنا أن نفعل في مصر حين نزور من نزور من العظماء وأشراف الناس. وهي تسعى بين يدينا رشيقة خفيفة الروح كأنما تمشي في الهواء، ونحن نتبعها متنقلَين معها من غرفة إلى غرفة، ومن بهو إلى بهو، تصل إلينا من بعيد أنغام عذبة هادئة متصلة كأنها غناء الأرواح، إن كنا قد سمعنا غناء الأرواح. ثم تنتهي بنا هذه الفتاة الحسناء إلى أستار ثقال، فتقف لحظة مشيرة إلينا أن سيدتها هنا وراء هذه الأستار. ثم تتقدم فتنحِّي سترًا عن يمين وسترًا عن شمال، وتمضي خطوات ثم تنحني محيِّية ثم تنحرف لنا عن الطريق، ثم تنصرف وقد تركتنا مع شهر زاد.

وشهرزاد تلقانا باسمة مبتهجة مشرقة الوجه طَلْقة الأسارير، ولكنها لا تتحرك من مكانها، وإنما تشير إلى صاحبي إشارة خفيفة أن ادنوَا، فدَنَونا، وإذا هي مستلقية على هذا الأثاث الذي يسمونه الكرسي الطويل، قد كثرت من حولها الوسائد، ووُضِعت قريبًا

منها مائدة صغيرة قد أثقلتها الكتب والصحف والمجلات، وهي تمنحنا يدًا صغيرة رشيقة، فإذا لثمناها أَذِنت لنا بالجلوس وأبت إلا أن يكون مكاني قريبًا منها، فنجلس ويتصل الصمت لحظات، ثم نسمع صوتًا لا أستطيع أن أشبِّهه إلا بخرير الماء حين يتساقط هادئًا نحيلًا في حوض من المرمر. وإذا هذا الصوت الحلو النحيل البعيد يقول لي: لقد روَّعناك يا سيدي على غير انتظار منك لهذا الخروج، فمعذرة إليك، ولا تلم إلا نفسك، فقد كثر الحديث عنك وكثر ما قرأت لك، حتى إذا علمت بقربك مني لم أجد من لقائك بدًّا. قلت في صوت مضطرب بعض الشيء: عفوًا يا سيدتي، أين أنا؟ ومن تكونين؟ أريد أن أعرف أنائم أنا أم يقظان، فقد اختلفَتْ عليَّ أمورٌ منذ اليوم أذهلتني عن نفسي، ولا أكاد أبلغ هذه الجملة حتى يتردد في هذه الغرفة الواسعة ضحك نحيف حلو، تم تمس يدها الرشيقة الناعمة يدي الغليظة الخشنة في رفق، ويقول الصوت البعيد: لا بأس عليك، لست نائمًا ولا حالمًا، وإنما أنت يقظان حاضر الذهن، وأنت عند شهرزاد. شهرزاد؟ ألا تعرفها؟ لقد طالما استمعتَ لها أيام الصبا، وقد طالما اشتغلتَ بها أيام الشباب، وما أقرب ما كتبتَ عنها منذ عامين اثنين. قلت: لا تعبثي يا سيدتي فلن تستطيعي أن تقنعيني، ولكنها قطعت عليَّ حديثي قائلة: بل أستطيع أن أقنعك بما أشاء، لقد ملأتُ قلبك صبيًّا وملأتُ عقلك شابًّا، وما ينبغي أن تنحرف عني حين ينحرف عنك الشباب. إنك لتعلم حق العلم أن شهرزاد خالدة لم يدركها الموت، ولن يبلغها الفناء، ولن يتحول عنها شبابها، ما بالك تشكُّ في هذا الآن وقد كنت مؤمنًا به حين كنت تقرأ كتاب هذا الشاعر العظيم المسكين الذي فارقنا منذ أسابيع. قلت: هنري دي رينييه؟ قالت: نعم، لقد قرأتَ كتابه وعرفتَ منه أن لي قصرًا في بغداد، فوددتَ لو استطعتَ أن تطير إلى هذا القصر وأن تلقاني وتسمع مني وتتحدث إليَّ، فماذا يروعك وقد تحققت أمنيتك، فأنت في قصري وهذه يدي في يدك، وأنت تسمع حديثي وأنا أريد أن أسمع حديثك؟!

قلت — وما شككتُ في أني مريض قد أخذني هذيان الحُمى: فأنا إذن في بغداد، في القصر الذي وصفه هنري دي رينييه؟

قالت متضاحكة: كلا، أنت في فرنسا قريب من قمة من قمم الألب. ألم تقرأ كتابي هذا الصباح؟ أليس من حق شهرزاد أن تصطاف كما يصطاف الناس؟ ومن الذي قضى عليها أن تنفق الدهر سجينة في قصرها السحري القائم على شاطئ دجلة؟ لقد تغير الزمان وارتقت الحضارة وأُتيحَ لشهرزاد أن تستردَّ حريتها وأن تطوف في أقطار الأرض، فتصطاف في جبال الألب وتشتو في الريفييرا.

قلت: وما يمنعك أن تنفقي الشتاء مرة في مصر؟

قالت: لا شيء، لقد هممت بذلك في الشتاء الماضي لولا هذا الفتى الغريب الذي تسمونه توفيق الحكيم، هو الذي ردني عن مصر بكتابه هذا الذي لم أحبه ولا أستطيع أن أحبه.

قلت متعجبًا: لماذا؟!

قالت: لأنه كشهريار لم يفهمني، وما أظنه سيفهمني.

قلت: وهل فهمك أحد؟

قالت: وما حرصكم على أن تفهموني؟ وما هذا المرض الذي أفسد عليكم كل شيء فأغراكم بفهم كل شيء؟

قلت: مهلًا يا سيدتي لا تغضبي، فإني لم أفهمك ولم أحاول فهمك ولن أحاوله؛ لأنك أحب إليَّ وآثرُ عندي وأجمل في نفسي من أن أمسَّك بهذا السوء الذي نسميه الفهم واستكشاف الحقائق.

قالت — وقد ملأها الرضا والابتهاج واستوت جالسة: لهذا أحببت أن أراك؛ لأنك ترى مثل ما أرى، وتؤمن بأن من فهم شيئًا فقد قتله، وتحب لي أن أحيا في نفسك فلا تحاول أن تقتلني بالبحث عن حقيقتي والجِد في الانتهاء إليها، ولكنك لا تعلم من أمري كل شيء.

قلت: ولا أريد أن أعلم من أمرك كل شيء.

قالت في لهجة المتعبة المحزونة: شيء واحد أحب أن تعلمه حتى لا يكون حبك لي إعجابًا كله، فقد يرضيني أن يكون في هذا الإعجاب بي شيء من الإشفاق عليَّ.

قلت: وما ذاك؟

قالت في تهالُكٍ وفتور: علةٌ أخذت تعتادني منذ حين، هي ضيق الصدر الذي يُلِم بي إذا جنَّ الليل فيحرمني الراحة، ويحول بيني وبين النوم. وليست في الدنيا شهرزاد أخرى تستطيع أن تذود عني هذا الضيق، وتسليني عن هذا الحرج، وتقص عليَّ من القصص ما يدعو إلى النوم كما كنت أفعل أنا مع شهريار في سالف الأزمان.

قلت، وقد أشرق وجهي وامتلأ قلبي بِشرًا، وانطلق من فمي ضحك لم أحس ملاحظته وتنظيمه، واندفع في جسمي نشاط لم أستطع كبحه، وإذا أنا أرفع يدها الرشيقة الناعمة إلى شفتي فألثمها لثمًا متصلًا وهي تلحظني دَهِشة متعجبة.

قلت حين عاد إليَّ الهدوء: لا بأس عليك يا سيدتي، علة طارئة لن تلبث أن تزول، سأردها عنك منذ الليلة، سأصف لك الدواء الذي يردها عنك آخر الدهر.

قالت متلهفة: وكيف ذاك؟ وما ذاك؟ ماذا تقول؟ أجادٌّ أنت؟ أصادق أنت؟ لقد عهدتك مشغوفًا بالمزاح.

قلت — وقد عدت فأشبعت يدها لثمًا وتقبيلًا: والمزاح وحده شفاؤك من هذه العلة يا سيدتي، فَلَأدعونَّ إليك النوم من ليلتك هذه، ولأعلِّمنَّك كيف تَدْعينه منذ غد.

قالت: وكيف يكون ذلك؟

قلت: ستتخذين لك سميرًا.

قالت مبتسمة في شيء من السخرية: وستكون أنت هذا السمير؟

قلت محزونًا: ليتني أصلح لذلك يا سيدتي، إذن أكون أسعد الناس.

قالت: أَوَلا تصلح أنت لذلك؟

قلت: كلا يا سيدتي، أنا أقل الناس حظًّا من الخيال وأعجز الناس عن القصص، وأضيقهم بنفسي وبالوقت، ولولا أن الله قد ملأ الدنيا كتبًا، وأَذِن أنها ستظل أبدًا مملوءة كتبًا لما استطعت لهذه الحياة احتمالًا.

قالت: ومن لي إذن بهذا السمير؟

قلت: وأنا لك به يا سيدتي، إنه صديقك العزيز عليك، الأثير عندك، الحبيب إليك.

قالت: أوجز.

قلت: إنه توفيق الحكيم، وهو منك قريب ليس بينك وبينه إلا ما كان بينك وبيني من الأمد حين كتبت إليَّ، إنه في الفندق الذي أنا فيه.

قالت — وقد ملأها النشاط وأخذها الاهتمام، وامتزج في صوتها الغضب والفرح معًا: هو إذن هنا هذا الآثم، لَيعلمنَّ كيف تكون الكتابة عن شهر زاد.

قلت: ولَتعلمِنَّ أنت يا سيدتي كيف يرضيك إذا أقبل النهار، وكيف يسليك إذا أظلم الليل، لو تعلمين كيف سقط على قريتنا هذه النائية المعتزلة سقوطَ الندى.

قالت: كيف سقط على هذه القرية؟

قلت: سبقَتْه إليها البشائر بمقدمه السعيد، لو رأيتِنا والباب يُطرَق علينا طرقًا عنيفًا مع الصبح حتى إذا فتحنا للطارق رأينا ساعي البريد يحمل إلينا كتابًا مستعجلًا من صاحبك ينبئنا فيه بمكانه من باريس، ورغبته في أن يلحق بنا، ويسألنا أن نختار له فندقًا يأوي إليه، وغديرًا يصطاد السمك فيه. وما نكاد يا سيدتي نفرغ من قراءة الكتاب حتى يُطرق الباب علينا طرقًا عنيفًا، فإذا فتحنا للطارق رأينا ساعية البرق تحمل إلينا رسالة من صاحبك ينبئنا فيها بأنه قد ركب القطار ولم ينتظر رَجْع الجواب، ونحن نلتمس له الفندق ونلتمس له الغدير ونلتمس له المواضع التي يجد فيها أدوات الصيد، وهو يُقبِل مع المساء كما تعرفينه.

قالت: ومتى عرفتُه؟

قلت: ألم تعرفيه من كتابه عنك؟

قالت: كيف أَقبلَ عليكم؟

قلت: أقبل كما ستعرفينه يقظان كالنائم، حاضرًا كالغائب، وغائبًا كالحاضر، قد أخذ من باعة الصحف ما استطاع أن يأخذ، وأخذ من باعة الكتب ما استطاع أن يأخذ، وقضى نهاره في القطار بين الكتب والصحف مختلسًا بين حين وحين نظرة من نافذة العربة، مفتونًا بما يرى، حتى إذا اطمأن به المكان بيننا أخذ يتحدث، فإذا هو دَهِش لكل شيء، سائل عن كل شيء، عارف بكل شيء، جاهل بكل شيء، يتحدث عن الجو، ثم يثب إلى مقالة قرأها في هذه الصحيفة، ويتحدث عن الجبل، ثم يقفز إلى فصل قرأه في ذلك الكتاب، يُقبِل على الطعام ويأخذ فيه، ولكنه مشغول بالنشاط الأدبي في مصر، وبهذا الفصل الذي كُتب عن ذلك المعرض الفني في باريس، ثم يصبح مشغولًا بالصيد مشغوفًا به، متهالكًا عليه يلتمس له أدواته ويُعِدها ويهيِّئها، وهو يفكر فيكِ وفيما آل إليه أمرك، وفي كتابه عنك، وفي ترجمة هذا الكتاب إلى الفرنسية، وفيما يمكن أو لا يمكن من تمثيل قصتك.

قالت وقد نهضت مغضبة: ويل له، أَوَيريد أن يُظهِرني في الملاعب ويعرضني على النَّظارة ويسلمني إلى الممثلين؟

قلت في شيء من المكر: أظنه يطمع في ذلك يا سيدتي.

قالت: لَيعلمنَّ ما جزاء من يعبث بشهرزاد.

قلت: لا تُنغِّصي عليه راحته، إنه سعيد راض مبتهج مغتبط يزور الجبال لأول مرة، لو رأيت ابتهاجه حين استكشف في الغابة شجرة البندق. لقد كان يأكل البندق جافًّا ويأكله رطبًا، ويأكله صِرفًا ويأكله ممزوجًا، ويعرف أنه ثمر لشجر، ولكنه لم يكن يعرف أين يكون، ولا كيف يكون ذلك الشجر، فلما رآه ورأى عليه ثمره لم يملك نفسه ابتهاجًا واغتباطًا. وما أرى إلا أنه سيكتب عن شجر البندق فصلًا أو كتابًا، وما أرى إلا أنه سيُحدِث بين الشجر وثمره حوارًا لذيذًا. لا تنغصي عليه راحته يا سيدتي، لقد رأى الثلج يغطي رءوس الجبال لأول مرة، وكان يقرأ ذلك في الكتب ويسمع عنه في الأحاديث وما كان يُقدِّر أنه سيراه، فلما رآه لم يسَعْ نفسه فرحًا وسرورًا، وأقسم لا يطمئن ولا يستريح حتى يدنو منه ويتصل به، ويملأ منه يديه، ولو استطاع لاحتمل منه ذخيرة إلى مصر.

لا تنغصي عليه راحته يا سيدتي. لقد قرأ وصف الجبل الأبيض حين كان تلميذًا وطالبًا، وسمع أخباره من السائحين، ولم يخطر له قط أن الجبل الأبيض شيء يُرى، فلما

رآه كاد يخرج عن طوره، لولا أن تمالك واصطنع الوقار، وهو يقسم لنا جهد أيمانه ليصعدنَّ فيه وليبلغنَّ قمته، فإذا صعبنا له ذلك قال في براءة الصبي النقي: ماذا؟ أليس يكفي أن أغدو إليه مع الصبح وأعود منه حين ينتصف النهار فأدرك معكم الغداء؟!

وأنا مندفع في هذا الحديث عن صديقي الأديب وقد شُغِلت به بعض الشيء، ولكن صاحبتي مُغرِقة في ضحك متصل لا يريد أن ينقضي، قد ردها إلى مكانها بين الوسائد لأنها عجزت عن القيام، فسكتُّ عنها حينًا حتى سكتَ عنها الضحك.

وإذا هي تسألني: أهو من السذاجة بحيث تصف لي؟

قلت: وما وصفت لك من سذاجته إلا أقلها.

قالت: فإن كتابه يصوِّره معقدًا أشد التعقيد.

قلت: هو كذلك معقد أشد التعقيد، فاتخذيه لك سميرًا، فستجدين عنده السذاجة المريحة حين تحتاجين إلى الراحة، والتعقيد المضني حين تحتاجين إلى الجد والتفكير.

قالت: وسيجد عندي ما لم يعلم من أمر شهرزاد.

وكان الخدم قد أقبلوا يحملون ألوانًا من الطعام والشراب لا علم لنا بها، فلما وضعوا ما كانوا يحملون وهمُّوا أن ينصرفوا استوقفَتْ أحدهم وقالت له: في الفندق الذي ذهبت إليه صباح اليوم مصري يقال له توفيق الحكيم، فإذا كان الغد فإني أريد أن أراه.

سمع الخادم أمر سيدته فانحنى وانصرف.

ولست في حاجة إلى أن أُتِم لك بقية ما كان بينها وبيني من حديث، فما أظن أن ذلك يعنيك، وإنما هو يعنيني أنا ويعني شهرزاد، وحسبك أن تعلم أني ودعتها آخر الليل وإنها لَمطمئنة النفس قد زال عنها الحرج، وتهيأت لاستقبال ساعات نوم لذيذ. وأصبحت ألتمس توفيق الحكيم في غرفته، وفي حديقة الفندق، وعند غدير الصيد، وفي مظانِّه من القرية فلا أجده، فأظن أنه ذهب متنزهًا في طريق من هذه الطرق الخضراء الفيحاء، وأنه سيعود إلينا مع الظهر أو مع المساء، ولكنه لا يعود مع الظهر ولا مع المساء، فما أشك في أن أعوان شهرزاد قد اختطفوه وفي أنه سجين هناك في ذلك القصر السحري القائم عند قمة هذا الجبل من جبال الألب.

سجين شهرزاد

(شهرزاد تتمطى بجسمها الممشوق كالحسام بين وسائدها الحريرية.)

شهرزاد (للعبد القائم على رأسها)**:** هل تم خطف توفيق الحكيم؟

العبد: خطفناه يا مولاتي!

شهرزاد: وماذا فعلم به؟

العبد: ألقيناه في جُب القصر المسحور.

شهرزاد (ضاحكةً عن دُر مُنضَّد)**:** هذا السانج المعقد!

العبد: معقد؟! هذا الرجل؟ كلا يا مولاتي.

شهرزاد: كيف؟ ماذا رأيتم؟

العبد: إنه السهولة بعينها. لم نكد نقبل عليه بسلاحنا حتى خلع في الحال معطفه وعصب ببعضه رأسه واتقى ببعضه جسمه، ثم انطرح على الأرض في هدوء رزين، وجعل كأنه صريع قد أُصيب، وما وصلت إليه بعدُ يد، وما لمسته إصبع.

شهرزاد (باسمة)**:** لقد كفى نفسه شر القتال.

العبد: لما وجَّهتِنا إليه يا مولاتي حسبنا أنا سنلاقي هِزَبرًا.

شهرزاد (ضاحكة)**:** هِزَبر؟ توفيق الحكيم؟

العبد: بل أكثر من هذا يا مولاتي. قد وجدناه يحمل ...

شهرزاد: كتابًا.

العبد: بل «سنارة» مما يُستعمل في صيد السمك الصغير. وقد عَلِق «خُطافها» بثيابه، من الرَّوع لَمرآنا!

شهرزاد (وهي تضحك)**:** ألم تجدوا معه قلمًا وورقًا؟

العبد: كلا.

شهرزاد: لم تجدوا معه غير «سنَّارة» صاد بها نفسه!

العبد: بل إنَّا يا مولاتي لم نجد معه «طُعمًا» مما يُجتذب به السمك. ولم نجد معه سلة يضع فيها ما يصيد. كل ما معه ذلك العود من «الغاب» الذي لا نفع فيه ولا ضر.

شهرزاد (كالمخاطِبة لنفسها): نعم. إنِّي أعرف هذا الصنف من الرجال، إنه لن يصطاد سمكة في حياته، ولا أحسب أنه يذهب يومًا إلى بحيرة أو نهر أو بحر، إنما هو يخلق في رأسه كل الرغبات، ويُعِد للوصول إليها المعدات، ويغمر نفسه في ذلك الجو الذي ابتدعه خياله، حتى إذا كان على بعد خطوة من التنفيذ والحقيقة؛ انتهى حلمه ولم يَعُد يعنيه من الأمر شيء.

العبد: أَوَمثل هذا الإنسان نائم أو يقظان؟!

شهرزاد (على الفور): إنه نائم كاليقظان ويقظان كالنائم.

العبد: مولاتي …

شهرزاد: ما بك؟

العبد: إنك … ترددين العبارة التي قالها هنا البارحة، ذلك الرجل الذي كنت تنادينه بالدكتور.

شهرزاد (كمن يثوب إلى نفسه): طه حسين!

العبد: من هذا الرجل؟ إنِّي أراه …

شهرزاد: تكلم!

العبد: شديد الدهاء.

شهرزاد (باسمة): ماذا رأيت من دهائه؟

العبد: لست أدري على التحقيق. إنما في كلامه وابتسامه شيء ينم عن سر مبهم وغرض خفي.

شهرزاد: رُح. إنك لست أعرف مني بالرجال. ليس في الأمر سر ولا غرض، إنما هذا الدكتور رجل صريح مستقيم، وقد أشار عليَّ بأمور سأعمل بها.

العبد: هو الذي أشار بخطف هذا الرجل المسكين؟!

شهرزاد: أيها العبد! الزم مكانك ولا تعترض عليَّ.

العبد: عفوًا يا مولاتي وغفرًا! إنك تعرفين إخلاصي وخضوعي. إنها زلة لسان.

شهرزاد: هذا الرجل المسكين إنما هو مسكين حقًّا إذا تركناه حرًّا طليقًا، إنما ينبغي أن نقتنصه ونحبسه في هذا القصر المسحور لتزهر حياته ويبدو معدنه وتظهر قيمته.

العبد: من هذا الذي لا تزهر حياته إلا في الحبس؟!

شهرزاد: إنه ليس مثلك. إنه خُلِق ليبقى إلى جانبي يبادلني الفكر.

العبد: فهمت، تريدين سميرًا يؤانسك في أوقات الضجر.

شهرزاد (كالمخاطِبة لنفسها): نعم، إنِّي الآن في سأم دائم؛ لأني لا أجد، بعد شهريار، عقلًا وخيالًا يبهران عقلي وخيالي.

العبد: إن الملك شهريار ذهب ولم يعد.

شهرزاد (كالمخاطِبة لنفسها): نعم، لقد أضعته أنا، لقد كان حرًّا طليقًا مرحًا كالطفل، فأوحيت إليه بأشياء كبرى مستحيلة، ذهب يبحث عنها فلم يعد.

العبد (كمن نسي نفسه): وقمر، وأنا ... كل الناس كانوا أحرارًا قبل أن يعرفوك!

شهرزاد (تثوب إلى نفسها): ماذا تقول؟

أجُنِنت أيها العبد؟! أنت تخاطبني بهذا الكلام؟! أنسيت ما قلت لك: إن الماضي قد مات، وإذا أردت أن تبقى حيًّا فكن خادمًا لا يذكر شيئًا مما كان.

العبد: غفرًا يا مولاتي. إنها كانت أيضًا زلة لسان.

شهرزاد: آه! إنِّي لفي ضجر. أَوَلم يعد عقلي قديرًا على أن يوحي إلى أحد بشيء ... ما هذا الشقاء؟!

العبد: أتأذنين، أأحضر السجين بين يديك؟

شهرزاد: نعم إنه الآن كل رجائي.

العبد: يا مولاتي، لا تضعي كل أملك في هذا المخلوق المسكين! إنه غير قدير على صيد سمكة!

شهرزاد: ربما كان قديرًا على صيد عقلي.

العبد: حاشا أن يكون عقلك يا مولاتي أهون اقتناصًا من السمك!

شهرزاد: أيها الأحمق! لا محل هنا لتلك المقارنة.

العبد: ومع ذلك، ألا تذكرين قول ذلك الدكتور؟!

شهرزاد: ماذا قال؟

العبد: قال البارحة إن هذا الإنسان لم يفهمك قط.

شهرزاد: سنرى.

العبد: متى تريدين رؤية السجين؟

شهرزاد: الآن.

(يذهب العبد مسرعًا، وتبقى شهرزاد بلا حراك تفكر لحظة، ثم تنهض فجأة وتتجه إلى مرآه في ركن مظلم ناءٍ في أقصى المكان، وتأخذ في إصلاح هندامها، وتنظم شعرها وصبغ شفتيها وأظافرها.)

العبد (يعود وهو يقود توفيقًا الحكيم بمعطفه الأسود و«سنارة» صيده)**:** تقدم يا هذا!

توفيق (للعبد)**:** إلى أين أيضًا؟!

العبد: قلت لك تقدم!

توفيق (يتأمل ما حوله ويخاطب نفسه)**:** أما أني خُطِفت فهذا لا شك فيه. نعم، إن صحَّت فراستي وصدقت فطنتي فأنا الآن مخطوف. (يستدرك متنبهًا لما قال) ما هذا الحمق؟! أهو أمر يحتاج إلى فراسة وفطنة أن أعرف أين أنا الآن؟! إنِّي أكاد أُجن جنونًا. أخبرني أيها الأسود! (يتأمل العبد ويخاطب نفسه معجبًا) ما أصلح هذا الأسود لتمثيل دور «العبد» في قصتي «شهرزاد»! (يمسك بذراع العبد) أخبرني أيها …

العبد (يلمح مولاته مقبلة إلى وسائدها فينهر سجينه)**:** صه!

توفيق: ماذا جرى؟

العبد (همسًا)**:** اركع!

توفيق: ماذا جرى؟

العبد (همسًا)**:** اركع!

توفيق (لا يفهم)**:** أركع؟ لماذا؟ لمن؟

شهرزاد (تبدو في جمال وجلال ودلال)**:** هذا أنت؟!

(توفيق يلتفت إلى الصوت الموسيقي مشدوهًا لا يتمالك إلا أن يركع من تلقاء نفسه في غير وعي.)

شهرزاد (تبتسم راضية ثم تهمس إلى العبد)**:** اتركنا.

(العبد ينصرف وهو يلقي على السجين الراكع نظرة استغراب لحاله واضطرابه.)

شهرزاد (للسجين في صوتها العذب)**:** انهض!

(توفيق ينهض وهو مطرق.)

شهرزاد (باسمة)**:** عرفتني؟

توفيق (في صوت خافت ولم يَزُل عنه بعدُ أثرُ الدهش)**:** نعم.

شهرزاد (معجبة مغتبطة)**:** لا يدهشني ذلك منك، فأنت عقل كبير وخيال واسع.

(توفيق ينظر إليها ولا يفهم عنها.)

شهرزاد: لماذا تنظر إليَّ هكذا؟! ألا تصدقني؟

توفيق: أ ... و... تعرفينني ... يا سيدتي؟

شهرزاد: كيف لا؟! إنِّي أعرفك كما تعرفني. ولقد كان ينبغي أن يَلقى أحدنا الآخر.

توفيق (لنفسه)**:** أرجو أن ينتهي هذا اللقاء على خير!

شهرزاد: ما هذه النظرة الحيرى؟! ألا يسرُّك أن تراني؟!

توفيق (مندفعًا بتأثير جمالها)**:** بالطبع. إنه لشرف عظيم. (ثم يتذكر فيستدرك) كلا ... إنه ليس كذلك.

شهرزاد (في تقطيب)**:** ماذا تقول؟

توفيق: سيدتي! لماذا أنا ها هنا؟

شهرزاد (باسمة)**:** إنك جئت كي تراني وأراك.

توفيق: فقط؟ كلا يا سيدتي. في الأمر ولا شك غلط! أنا رجل من أهل مصر أضناني التعب والجهد طوال أعوام قضيتها في قراءة وكتابة وأعمال رسمية بغير هدنة أو انقطاع، فجئت هذا الصيف إلى جبال الألب للنزهة وراحة البال، لكن ... بَينا أنا أسير الهُوَينى في المساء في ذلك الطريق المؤدي إلى شامونيكس، أستنشق النسيم المعطر بأريج أزهار التفاح والبندق، القائمة أشجاره في الغابات الخضراء بسفح الجبل ذي القمة البيضاء؛ إذا رجال مُدجَّجون بالسلاح ...

شهرزاد (باسمة)**:** أعرف ... أعرف، ولقد قاومتهم أنت مقاومة الهِزَبر!

توفيق: فعلت ما استطعت، ولكن الكثرة تغلب الشجاعة.

شهرزاد (تخفي ضحكها)**:** صدقت، أيها الشجاع!

توفيق: وبعدُ يا سيدتي، ومتى يُخلَّى سبيلي؟

شهرزاد (في دلال)**:** أبهذه السرعة مللتنا؟

توفيق: أنت حقًّا على غاية اللطف والظرف والجمال، ولكن ...

شهرزاد: ولكن؟

توفيق: روحي الآن ولا شك بين يديك الصغيرتين. وأنت الآن صاحبة الأمر والنهي. فمُرِي رجالك بإطلاق سراحي وخذوا مالي وثيابي حلالًا لكم.

شهرزاد (في تقطيب)**:** ما ظنك بي؟ إنك فيما أرى تجهل من أنا.

توفيق: لا مع الأسف. لست أستطيع أن أجهلك. إن معرفتك لا تحتاج إلى فراسة ولا إلى فطنة.

شهرزاد (في ارتياب)**:** من أنا؟

توفيق: أنت ولا فخر زعيمة الخطافين.

شهرزاد (في خيبة مُرة)**:** أنا؟ أنا؟ (كالمخاطِبة لنفسها) أنا التي حسبت أنه عرفني! صدق الدكتور؛ إنه ليس ساذجًا فحسب. إنه أبله!

توفيق (يرى تغيُّرها)**:** ماذا جرى؟ أترينني غلطت يا سيدتي؟

شهرزاد: لا.

توفيق: أرى وجهك قد تغير.

شهرزاد: يا لخيبة الأمل!

توفيق: نعم. كنتم تحسبون أنكم وقعتم على موسر من أصحاب الملايين الأمريكان المصطافين، ولكن رجالك يا سيدتي قصار النظر إذ اختطفوا لك أديبًا، عامر الجيب لا بأوراق البنك، بل بأوراق النثر!

شهرزاد (ترفع رأسها سريعًا في أمل)**:** وهل أنت حقًّا عامر الجيب بالنثر؟

توفيق: لا نثر ولا شعر. تركت كل هذا في مصر وجئت هنا للراحة والسكينة وفراغ البال. (بعد لحظة) وأنت ما يعنيك من أمر الشعر والنثر؟

شهرزاد: هذا كل ما يعنيني. لقد اختطفتك لنثرك وفكرك.

توفيق (ساخرًا)**:** شيء جميل!

شهرزاد: إن شئون الفكر والعقل والخيال هي كل حياتي.

توفيق: أنت، يا من تخطفين الناس ليلًا من الطرقات!

شهرزاد: إني لا أخطف إلا الموهوبين أمثالكم.

توفيق (في سخرية)**:** أستغفر الله!

شهرزاد: ألا تصدق؟ آه لو عرفت حقيقتي لصدقتني من ساعتك، ولكنك نائم كاليقظان ويقظان كالنائم، تمر بك الحقائق كأنها أشباح، وترى الأشباح كأنها حقائق. أأنت واثق بأنك لم ترني من قبل؟

توفيق: واثق أنك لم تشرِّفيني بالخطف قبل الآن.

شهرزاد: انظر إلى عينيَّ الصافيتين!

توفيق: إنهما خضراوان كعيون القطط والسنانير!

شهرزاد: لقد شُغفتَ بهما أنت يومًا، وكتبت عني وعنهما كتابًا.

توفيق: أنا؟ أين ومتى؟ حاشا أن أكتب كتابًا عن امرأة أو عيون امرأة.

شهرزاد: إنِّي امرأة لا ككل النساء.

توفيق: حقيقة، لم أرَ مثل جمالك قط. ولو كنت ممثلة لما صلحت امرأة في الوجود غيرك لتمثيل ذلك الدور العسير في روايتي العسيرة، ولكنك امرأة على الرغم من جمالها لا يعنيني الآن من أمرها شيء، فما جئت الجبل أطلب المغامرات، إنما أطلب الراحة والسكينة والصفاء.

شهرزاد: ألا أستطيع أن أدخل حياتك فأثير ساكنها؟

توفيق: وما حظك من إقلاق راحتي وصفوي؟

شهرزاد: قد أوحي إليك بشيء.

توفيق: أي شيء؟

شهرزاد: قصة مثلًا أو كتاب.

توفيق: هل أغراك أحد بي؟

شهرزاد: كلَّا. (بعد لحظة) هل تعرف طه حسين؟

توفيق: إنه يقيم معي في فندق «مون جولي» بسفح الجبل، ماذا جرى له؟ أخُطِف هو أيضًا؟

شهرزاد (كالمخاطِبة لنفسها)**:** كلَّا. إنه لا يحوجنا إلى الخطف. إنِّي إذا طلبته في أي حين أَقبل عليَّ دائمًا دون إبطاء.

توفيق: وكيف عرفته؟

شهرزاد: إنِّي أقرأ كتاباته كلها منذ أن حمل القلم، وأعرف كتبه؛ «الأيام» و«في الصيف» و«على هامش السيرة» كما أعرف نفسي.

توفيق: أمرك بدأ يدهشني. من أنت؟! أطالبة من طالبات السوربون؟

شهرزاد: أنا؟ ألا تعرف من أنا؟!

توفيق: قلت لك لم أنل بعدُ هذا الشرف.

شهرزاد: ألم تسمع بامرأة تُدعى «شهرزاد»؟

توفيق: سمعت بها حقيقة.

شهرزاد: سمعت بها فقط؟! يا لك من ... كيف أصفك؟!

توفيق (يطيل النظر إلى شهرزاد): أنت؟!

شهرزاد: عرفتني حقًّا هذه المرة؟

توفيق (كالنائم اليقظان): هي!

شهرزاد (في صوت كالهمس): نعم. أما كنت تتوقع رؤيتي هنا؟

توفيق: هي ... في جبال سافوا العليا! أهذا ممكن؟ أهذا معقول؟!

شهرزاد: إنك تعرف أنها تستطيع أن تكون في كل مكان.

توفيق (كالمخاطِب لنفسه): «صورتها كانت تتبعك في كل مكان.»

شهرزاد: نعم، هكذا قال شهريار عني يومًا لقمر.

توفيق: عجبًا! أنت إذن هي التي أوحت إليَّ بكتابي. أنت هي التي خرجت من عقلي وفكري! ومع ذلك يا شهرزاد ... تخطفينني اليوم وتحبسينني بين جدران هذا القصر الكبير؟!

شهرزاد (باسمة): وأنت أيضًا، ألم تخطفني وتحبسني بين دفتَي كتاب من القطع الكبير؟!

توفيق: آه تنتقمين إذن! ولكنك قد أسرفت وغلوت. فأنت قد خطفتني وحبستني في الواقع والحقيقة.

شهرزاد (في ابتسامة غامضة): الحقيقة!

توفيق: هذا ما لا شك عندي فيه.

شهرزاد: دع الحقيقة في مكانها هادئة.

توفيق (ينظر إليها مليًّا): يا للعجب! نعم إنِّي قد عرفت الآن ابتسامتك الغامضة! أنت هي شهرزاد بلا مِراء كما بدت في مرآة فكري لأول مرة. أتأذنين لي في لثم يدك طويلًا؟

شهرزاد (باسمة وهي تمد يدها): طويلًا! إنكم معشرَ الأدباء سواءٌ!

توفيق: هل أطال أديب غيري لثم يدك؟

شهرزاد (كالمخاطِبة لنفسها): البارحة في منتصف الليل!

توفيق: ماذا تقولين؟

شهرزاد (تلتفت إليه فجأة): اسمع مني! أتعرف لماذا طلبتك؟

توفيق: لا.

شهرزاد: آه! ما أحوجني اليوم إلى سمير يبقى إلى جانبي يُزيل عني السأم!

توفيق: أنا؟!

شهرزاد: ولم لا؟

توفيق: أَوَلم تجدي في هذا الخَلق من يَصلُح غيري لهذا المنصب الخطير!

شهرزاد: ليس في الوجود غيرك. لقد دلني عليك صديق أثق بحكمه وذوقه ورأيه.

توفيق: أهو صديق لك أم لي؟

شهرزاد: لكلينا.

توفيق: إن صدقت فطنتي وفراستي فهو طه حسين، اسمعي أيتها الجميلة! لقد لعب بك هذا الصديق الذي تثقين بحكمه وذوقه ورأيه. فأنا آخر من يصلح لمسامرة الملكات الضَّجِرات في ليالي الصيف المقمرات!

شهرزاد: سنرى.

توفيق: المسألة لا تحتاج إلى تجربة. إنِّي رجل جئت من مصر طلبًا للكسل وبحثًا عن راحة البال.

شهرزاد: سمعت هذه العبارة منك ألف مرة ومرة!

توفيق: سيدتي العزيزة! لو سألتك أمنية غالية.

شهرزاد: كل أمنية لك مجابة مهما غلت.

توفيق: أريد أن تتركيني أتثاءب.

شهرزاد: إلا هذه. أنت ما خُلقت لهذا.

توفيق: آه! كم أضيق الآن ذرعًا بهذا الصنف من النساء!

شهرزاد: أتسمع نصحي؟ أذعن لما كُتب عليك. ولا تكن عنيدًا كشهريار في أول أمره. إنك باقٍ إلى جانبي تسامرني رضيت أو أبيت، فلا تضطرَّني إلى العنف والإكراه.

توفيق: العنف! كلا، لا لزوم للعنف بعد الآن. كفى ما حصل من خطف وقبض وسَجن. أسامرك وأمري لله! (كالمخاطِب لنفسه) ولكن الله يتولى جزاءك يا من أغريت بي وحرضت عليَّ.

شهرزاد (تستلقي على الوسائد وتضع رأسها في راحتيها)**:** الآن حدثني عن أثر جبال الجليد في نفسك، وعن الغابات الخضراء، وعن ثمر البندق؛ هل حقًّا استكشفته وأكلته بقشره!

توفيق: يحدثك عن كل هذا الذي أخبرك به، فهو قدير على وصف ذلك بالإبداع الذي وصف به جبال «الفوج» في كتابه «في الصيف»، وأنت تعرفينه كما تعرفين نفسك!

شهرزاد: ولكني أريد أن أسمع منك أنت ما حدث لك.

توفيق: ماذا حدث لي؟ لقد نسيت.

شهرزاد: ألا تريد أن تقص عليَّ؟!

توفيق (فجأة): صه! قد خطرت لي فكرة نورانية. أتريدين قتل الضجر؟ عندي له دواء ناجع. هَلُمي بنا.

شهرزاد: إلى أين؟

توفيق: إلى البحيرة. هذه «سنارتي» وآتي لك «بسنارة»، ثم نذهب معًا نصطاد سمكًا ... من سمك «الترويت» الذي تعج به البحيرة والجداول المنحدرة من الجبال.

شهرزاد: أنا أصطاد سمكًا؟!

توفيق: وما الضرر؟

شهرزاد: أهذا رأي تراه لي؟! يا لك من ... ماذا أقول لك؟

توفيق: إنِّي لا أرى في ذلك سُبة. لقد كان أبوك صيادًا.

شهرزاد: أبي؟

توفيق: لقد قرأت ذلك بعيني في نسخ عدة من كتاب ألف ليلة وليلة.

شهرزاد: إنك قد جاوزت حدك يا هذا.

توفيق: صدقت. وإني لا أستحق منك الآن غير الطرد خارج هذا القصر.

شهرزاد: إنِّي لست بلهاء فأفعل ذلك. إنك باقٍ هنا كي تسامرني ... هلمَّ! سامرني!

توفيق: لا حول ولا قوة إلا بالله!

شهرزاد: إن كنت لا تجد من الحقائق معينًا فأين الخيال؟! هل نضب خيالك هكذا وشيكًا؟!

توفيق: يظهر لي أنه نضب.

شهرزاد: وا خجلاه! هذا مؤلف وروائي وأديب يعجز عن مسامرتي ليلة واحدة. وأنا التي سامرت ملكًا جاهلًا غشومًا ألف ليلة وليلة!

توفيق: كلنا نعرف لك هذه العبقرية.

شهرزاد: كنت أحسبك تستطيع أن تستنبط لي شيئًا يسحر لبي!

توفيق: إنِّي أستطيع شيئًا.

شهرزاد: ما هو؟

توفيق: أستطيع أن أصغي إليك ... تكلمي أنت واستنبطي ما شئت وأنا أصغي.

شهرزاد: هذا بديع! اختطفتك وجئت بك إلى هنا كي أسامرك أنا؟!

توفيق: إنك خُلقت كي تتكلمي أنت.

شهرزاد: ماذا تقول؟

توفيق: أقول إن كل عملك في الوجود أن تتكلمي فيصغي إليك الناس، لا كل الناس، بل المجدودون والموهوبون!

شهرزاد: صدق طه حسين؛ إنك معقد! بل أكثر من معقد، إنك خبيث!

توفيق: وطه حسين! أهو البراءة بعينها؟ ألا تعرفين أنه مكر بك مكرًا جميلًا.

شهرزاد: كيف ذلك؟

توفيق: إنه هو الذي كان يستطيع أن يسامرك أبدع المسامرة. ولكنه مشغول ليله ونهاره بـ «المتنبي»، ولقد أغراك بي ليفلت هو ويخلص إلى شاعره. وهكذا آثر «المتنبي» على «شهرزاد».

شهرزاد: أهو فعل هذا؟

توفيق (منتصرًا)**:** عليك به! وخطفه هين سهل. فهو يجلس حينًا بمفرده يفكر تحت شجرة الزيزفون الكبيرة في حديقة الفندق، وأحيانًا يجلس معه صاحبه «فريد» يقرأ له. ولا جناح ولا تثريب في خطفهما معًا.

من شهرزاد

سمعت شهرزاد من أسيرها هذا الإغراء فرفعت كتفيها الجميلتين رفعًا رفيقًا أنيقًا لا يكاد يُحَس، وقالت في سخرية لم يلحظها الأسير الأديب: «رأي موفَّق»، ثم تناولت قضيبًا دقيقًا من العاج فمسَّت به إناء أجوف من الفضة سمع له صوت فيه عذوبة وخفاء، وانفرجت له أستار جانبية من القطيفة المقصبة، وخرج من بين هذه الأستار ثلاث فتيات حسان قد اعتدلت قاماتهن أجمل اعتدال، وصُوِّرت وجوههن أحسن تصوير، تقدمن في خطًى متزنة متقاربة، حتى إذا دنَون من سيدتهن انحنين فأطلن الانحناء، ثم استوين فأحسنَّ الاستواء، والأسير قائم ذاهل يُردِّد طرفَه الحائر بينهن وبين سيدتهن لا يفهم شيئًا ولا يقول شيئًا. وشهرزاد تنظر إليه وعلى ثغرها ابتسامتها الغامضة وتقول له في صوت تملؤه الأناة والمكر والدهاء والشعور بقوة الملك والسلطان معًا: «لا يزغْ بصرك يا سيدي ولا تسرعْ إليك الفتنة؛ فإنك لم تتجاوز بعدُ أول الطريق.»

ويختلط الأمر على الأسير فيذهب عنه ما كان قد أظهر من تجلُّد واصطنع من وقار، ويسوءُه أن قد نَفَذت شهرزاد إلى نفسه فرأت اضطرابه وتردده وحيرته بين هذا الجمال الخالد الذي استقر بين الوسائد الحريرية، والذي كان يحاوره منذ حين، وهذا الجمال الرائع الذي انفرجت عنه الأستار، ويهمُّ أن يُجمجِم معتذرًا، ولكن شهرزاد تخفف عليه المئونة وتضع عنه الوزر، وتتجه إلى هؤلاء الفتيات الحسان قائلة:

خُذن هذا السيد، فأصلِحن من أمره وهيِّئنه لمسامرتي، ثم عُدن به إليَّ إذا صار لها أهلًا!

هنالك يطيش لب الأسير ويغيب رشده ويفارقه صوابه، فيسأل: بماذا تأمرين يا سيدتي؟! وماذا تريدين أن يُصنَع بي؟! وإلى من تسلمينني؟!

فتجيبه شهرزاد مبتسمة في شيء من القسوة: ألم تنظر إلى المرآة؟ ألم ترَ أنك أشعث أغبر؟ أتظن أنك على هذه الحال الرَّثة تصلح لمسامرة الملوك؟

قال الأسير:

سيدتي إنِّي لا أصلح لشيء، ولم أطلب شيئًا إلا أن أُرَد إلى حيث كنت، وأعود حرًّا طليقًا أطوف في المسالك والطرقات حول سالنش، وألتمس غديرًا أصطاد فيه السمك.

قالت: ولكن الله أراد لك أن تمسي لي سميرًا.

قال: وأنت تسلمينني إلى هؤلاء الفتيات الحسان، فماذا تريدين أن يصنعن بي؟

قالت: يُصلِحن من أمرك، ويُزِلن عنك ما رَكِبك من الغبار وما علاك من شَعَث، يُجْرين المشط والمِقَص على رأسك، ويُنزِّهن الموسَى في لحيتك هذه، ويأخذن من أظافرك، ويُبْدِلنك من ثياب المدينة هذه ثياب القصر، ثم يَردُدنك إليَّ سمحًا طلقًا لا تقتحمك العين، ولا يتجافى الطَّرْف عن النظر إليك.

قال مرتاعًا: وهن اللاتي سيصنعن بي هذا كله؟

قالت: وما يسوءُك من ذلك؟

قال: ما أعرف والله ما يسوءُني مما يسرني، ولكني أتوقع يومًا كيوم بفنوس.

قالت: في قصة أناتول فرانس لقد ألهمته هذه القصة في ساعة من ساعات فراغه وفي لحظة من لحظات عيني، ولكن لا بأس عليك فما أنت بالقديس وما أنا …

قال مسرعًا: عفوًا يا سيدتي.

وأشارت هي إلى الفتيات أن أَسرِعن، فأَحَطن به ودفعنه دفعًا يسيرًا إلى ما وراء الأستار.

وخَلَت شهرزاد إلى نفسها فأخذت قلمها وكتبت إليَّ هذا الكتاب الذي أَلَفيتُه من الغد على مائدة صاحبي، لم يحمله إليَّ ساعي البريد، ولم يعرف صاحبي كما لم أعرف كيف وصل إلينا.

«**سيدي**

لك مني الشكر المضاعَف والتحية الخالصة، لقد وجدت في زيارتك إياي راحة وترفيهًا عليَّ، ولقد استقبلت بعد انصرافك عني نومًا هادئًا مطمئنًّا، ولقد نصحتَ لي فصَدَقتَ النصح، وأشرت عليَّ فأحسنت المشورة، فقد خطف أصحابي صديقك الأديب وحملوه إليَّ على الحال التي كان عليها في طريق من طرق سالنش أشعث

أغبر مهملًا، قد اختلط أمره وهو يحسب أن الرشد لم يفارقه، وامتلأ قلبه رَوعًا ورعبًا وهو يظن أنه أشجع الناس.

حملوه إليَّ وقد اتخذ معطفه ترسًا يتقي به ما أقبل عليه من شر، ولم يخطر له أن يقاوم المعتدين عليه حتى بعصا الصيد هذه التي كان يهزها في يده كما يهز الفارس العربي رمحه السمهري. ولم أكد أراه وأسمع له حتى استيقنت أنه — كما أنبأتَني — ساذج بريء. زعم أنه شجاع وأنه ذاد عن نفسه ما استطاع، ولم يُقدِّر أن الذين حملوه إليَّ قد أنبئوني بما لقوا من مقاومته، وما بلَوا من حسن دفاعه عن نفسه. ولكني لم أكد أحاوره وأطيل معه الحديث حتى تبينت أنه — كما أنبأتني عنه — معقد شديد التعقيد؛ فقد أخذ يداورني ويماكرني ويلقي إليَّ جملًا ذات وجهين وأخرى ذات أوجه. راعه أني اتخذته سميرًا فأراد أن يخلص من هذه الخدمة التي يتهالك عليها كثير من الأدباء، وتتقطع دونها أعناق كثير من أصحاب المواهب والنبوغ، فسلك إلى هذا التخلص طرقًا أيسر ما توصف به أنها يسيرة كل اليسر، ملتوية كل الالتواء. ألم يطلب إليَّ أن آذن له في أن يتثاءب؟ أرأيت أديبًا يتثاءب في حضرة شهرزاد؟ ألم يعرض عليَّ أن أصحبه إلى الغدير أو البحيرة لنصطاد السمك معًا؟ فلمَّا لفتُّه إلى أن شهرزاد لا ينبغي لها أن تصطاد السمك لم يَخَف من أن يُذكِّرني بأن أبي كان صيادًا.

إنه لساذج كل السذاجة، معقد كل التعقيد. لقد كان يدفعه تعقيده إلى أن يمكر بي وينثر لي الشباك والأشراك، ولقد كانت سذاجته تخيِّل إليَّ أني قد انخدعت لمكره ووقعت في حبائله، فقد كان يفهم كلامي على وجهه ولا يُقدِّر أني أستطيع أن أَلقى مكرًا بمكر وعبثًا بعبث وخداعًا بخداع. له الله، إنه يظن أن المكر وقْف عليه، وأن الدهاء لم يُخلَق إلا له. إنه قد فهم كيد النساء فظن أنه أبلغ كيدًا من النساء، ولكني ملكت أمري أكثر مما ملك أمره، فخيَّلتُ إليه وخيَّل هو إلى نفسه أني لم أنكر مما قال شيئًا، وأظهرت له يأسي منه وخيبة أملي فيه وفي قدرته على أن يسامرني ويطرد عني الحرج والضيق. فسرَّه ذلك وأرضاه، وظن أن انتصاره محقَّق وأن الإفراج عنه قريب، ولست أريد أن أغريك به ولا أن أفسد ما بينك وبينه من الود، فأنا حريصة على أن تصلح الأمور أبدًا بينكما، ولست أريد أن أعاتبك ولا أن ألومك، فإنِّي لم أصدق ما قال فيك، ولم أنخدع بكيده لك، ولكني أريد أن أؤكد لك أنه ساذج حقًّا؛ فقد زعم لي وظن أني سأصدق ما

زعم لي، زعم لي أنك رغَّبتني في مسامرته لتفلت أنت من هذه المسامرة وتخلو إلى شاعرك الذي أنت مشغول به، والذي تُؤْثر الاستماع له والتحدث عنه على مسامرة شهرزاد.

وقد رأى مني ما أَقنَعه بأني مصدقة مُحنَقة مفكرة في الانتقام فتجاوز الكيد إلى الإغراء، وعرض عليَّ أن أخطفك كما خطفته، ويسَّر عليَّ أمر خطفك من حديقة الفندق تحت شجرة الزيزفون، أو من هذه الغرفة التي تخلو فيها مع صاحبك إلى شاعرك هذا الذي يشغلك في هذه الأيام. وقد أظهرت له قبول رأيه، فلا تسَلْ عما ملأ قلبه وظهر على وجهه من الغبطة والبشر، ولكن ابتهاجه لم يَطُل، فما أسرع ما دعوت ثلاثًا من جواريَّ فأمرتهن أن يأخذنه فيفعلن به الأفاعيل، ثم يرددنه إليَّ وقد صار أهلًا لمسامرتي. ولو رأيته بين أيدي هؤلاء الفتيات لرأيت عجبًا، ولو سمعته يتحدث إليهن لسمعت عجبًا، ولكن لن أقصَّ عليك شيئًا من ذلك وإنما أدع له إنباءك به، فإن له في هذا فنًّا لا يخلو من فكاهة ترضيك، وأنت ستراه من غير شك وستراه عندي، فما أظنك تكره زيارتي، وما أصدق أن المتنبي يشغلك عني، وهبِ المتنبي قادرًا على أن يصرفك عن شهرزاد فإن صاحبك في حاجة إليك؛ فأمره أشد مما تظن خطرًا، بل هو أشد خطرًا مما كنت أُقدِّر ومما كنت أريد.

لقد كنت ألتمس سميرًا فدللتني عليه، ولكن قصري لم يكد يحتويه حتى كثر الماكرون به والكائدون له والمتألبون عليه، هؤلاء أشخاصه الذين خلقهم خلقًا في هذه القصة التي نسجها حول شهرزاد، والذين بَعُد عهدهم بي وانقطعت أخبارهم عني حتى أُنسيتُهم أو كدت أنساهم، وحتى نسُوني أو كادوا ينسَونني، قد عرفوا مكانه من القصر وخضوعه لسلطاني، ولست أدري كيف عرفوا ذلك، فأقبلوا جميعًا، ولست أدري من أين أقبلوا، وكلهم يريد أن يخاصمه، وكلهم يريد أن يقتصَّ منه لأنه صوَّرهم على غير ما يحبون وأنطقهم بما لا يرضَون، وأجرى على أيديهم من الأعمال وأدار في رءوسهم من الخواطر ما لم يخطر لأحد منهم ببال. وما ظنك بشهريار الذي فارقني منذ أحقاب وأحقاب، وقد عاد إليَّ اليوم يحاورني ويجادلني في هذا الرجل الذي صوَّره كما تعرف، وجعله كما يقول مثلًا للغباء الذي يزعم الذكاء، والغفلة التي تدَّعي الفطنة، والضعف الذي يتكلف القوة، ومثلًا لأكثر من ذلك؟! وهو يلومني ويغريني ويحرضني،

ويسألني كيف أعفو عن هذا الذي اتهمني فيما لا ترضى امرأة حقيرة أن تُتهم فيه، فكيف بملكة كريمة مثلي متسلطة على القلوب خالدة على الأزمان؟! وقمر يقسم ما أضمر لمليكه غدرًا، ولا أدار في خَلَده شيئًا يستحي أن يظهره.

والعبد — وويل لصاحبك من العبد — إنه ثائر فائر، إنه مُرغٍ مُزبِد، إنه مُبرِق مُرعِد، إنه يريد أن يمزق صاحبك بأنيابه وأظافره، إنه لا يطيق التفكير في العفو عن هذا الرجل الذي جعله صورة بشعة لأبشع ما يتسلط على العقول والأبدان، وهو يغريني ويحرضني ويريد أن يضرم النار في قلبي لولا أن قلبي أهدأ من أن تضطرم فيه النار. وهو يسألني كيف أترك الحياة لرجل صوَّرني في هذه الضعة، وجعلني أهبط من أعلى عليين لأَكلَف بهذا المخلوق البشع الدنيء؟! والساحر يقسم ما سحر، والجلاد يقسم ما باع السيف لينفق ليلة هنيئة، وأبو ميسور يقسم ما أظلَّت حانته إثمًا قط، حتى زاهدة تقسم ما عرفت سرًّا ولا سُئلت عنه ولا باحت به ولا اتخذت وسيلة إلى معرفته. وكل هؤلاء مَغيظ مُحنَق يلحُّ عليَّ في أن أنتقم له وأنتقم من صديقك البائس المسكين. ومع أني كنت ضيقة به ساخطة عليه حين قرأت كتابه، فقد أدركتني الرحمة له والرفق به حين رأيت هذه الأشباح كلها تريد أن تشرب دمه وتأكل لحمه وتَعرُق عظمه عرقًا، أسرع إلى زيارتي يا سيدي فلعلك تعينني على حماية هذا الصديق المسكين.

على أنني لا أريد أن يظن بي صاحبك أني خطفتك كما خطفته، فأنت أحب إليَّ وأوثق عندي من أن تُخطَف، ولكني أريد أن تنبئني باستعدادك لزيارتي، فاكتب إليَّ إن كنت في هذه الزيارة راغبًا، ولا تكلف نفسك محاولة إرسال الكتاب إليَّ، ولكن إذا أتممت إملاءه فليضعه صاحبك على المائدة، فهذا يكفي. وأنا مُظهِرة أسيري البائس على كتابك ليعلم أن الناس جميعًا لا يُخطَفون، وأن منهم من يزورون شهرزاد عن شوق إليها ورغبة في زيارتها، وأن المتنبي مهما يشغلك فلن يصرفك عني. وإلى أن يصل إليَّ كتابك أرجو أن تتقبل يا سيدي تحية التي تنتظرك مَشوقة إليك.»

شهرزاد

إلى شهرزاد

ولست أدري كيف أصف لك أيها القارئ العزيز ما أحدث هذا الكتاب في نفسي من الأثر، فأنا صادق إن أنبأتك بأنه ملأ قلبي بهجة وسرورًا، وأنا صادق إن أنبأتك بأنه ملأ قلبي جزعًا وفزعًا، وأنا صادق كذلك إن أنبأتك بأنه أثار في نفسي حزنًا يسيرًا؛ فأما البهجة والسرور فلأني كنت أتحرق شوقًا إلى لقاء شهرزاد، وأما الجزع والفزع فلأني كنت أرتعد إشفاقًا على توفيق الحكيم أن تتقسَّمه هذه الأشباح فيذهب شهريار برأسه، ويذهب كل واحد منها بشِلو من أشلائه. وأنا الذي دل عليه شهرزاد فعرَّضه لهذا الخطر المنكَر، وللرجل أهله وأصدقاؤه في مصر قد فارقهم منهوكًا ضعيفًا ليعود إليهم قويًّا أيِّدًا، وهو بعد هذا كله صديق لي حبيب إليَّ، أوثر له العافية وأضنُّ به على المكروه، وأتمنى له حياة متصلة مملوءة بحركاته هذه المضطربة المتناقضة التي تُرضي وتُسخِط وتسر وتسوء. وأما الحزن اليسير فلِمَوجِدة أحسستُها حين رأيت صديقًا يكيد لصديقه، وأديبًا يتجنَّى على أديب. ولست أنكر أني قد مكرت به شيئًا حين أغريت به شهرزاد، ولكني لم أُرِد به إلا خيرًا لأني أتحت له لقاء تلك التي جعلته رجلًا معروفًا، فما كنت أُقدِّر أنه سيمكر بي ويكيد لي على هذا النحو. أما صاحبي فلم يجد إلا غبطة وفرحًا لأنه سيرى شهرزاد وقصر شهرزاد، وكان يقول لي: هوِّن عليك فما يتعرض صديقك لخطر ما، ومتى رأيت الأشباح تتقسَّم بينها أجسام الأحياء؟ وهل تستطيع هذه الأشباح أن تثبت لكيد شهرزاد ومكرك أنت إذا اجتمعتما على حماية توفيق؟ ومع ذلك فإنك تحفظ كثيرًا من هذه الصيغ السريانية والكلدانية التي تتلوها فتطرد بها الأشباح من المكان الآهل بها، وترد هذا المكان آمنًا كله لا خوف على أهله ولا هم يحزنون.

وكان يقول لي: لا تجدْ على توفيق ولا تسئ به الظن، فقد ضاقت عليه الحيل وأخذت عليه الطرق فاتخذ الوقيعة فيك عند شهرزاد وسيلة إلى الإفلات من سجن شهرزاد. وأنت

تعرف صاحبك واندفاعه ورجوعه بعد الاندفاع. ومن طبيعة الأدباء أن يمكر بعضهم ببعض ويكيد بعضهم لبعض، والأمر مُنتهٍ بينكما إلى مودة لا تشوبها ضغينة ولا حفيظة. فخلِّص قلبك من الحزن والخوف، وخلِّ بينه وبين الفرح بلقاء شهرزاد، وأملِ عليَّ الكتاب الذي تنتظره منك.

ثم يبسط الصحف أمامه ويأخذ القلم ويعفيني من هذه الحركة التي أَلِفتها كلما هممت بالإملاء، وهي الْتِماس السجاير، فيقدم إليَّ السيجارة ويشعلها، ويقول ما تعود أن يقول؛ «نعم»، فأُملي عليه:

«أدركني كتابك يا سيدتي وقد بلغ مني الجهد والإعياء أقصى ما يستطيعان أن يبلغا من رجل لم ينم الليل ولم ينم بالنهار. لو تعلمين كيف أنفقت الساعات واللحظات منذ ودعتك لما احتجت إلى أن تنبئيني بأنك لا تقبلين فيَّ سعاية ولا تستجيبين فيَّ لكيد. أتعرفين شيئًا أروع من الليل العريض يجثم على الفضاء العريض مُنيخًا بكَلكَله كما يقول شاعرنا القديم، وقد أخذت السماء ترميه من أشعة النجوم بسهام ماضية تبلغه وتنفذ فيه، ولكنها لا تنال منه شيئًا ولا تُحدِث فيه أثرًا، وإنما هو ثابت لا ينتقل ومستقر لا يزول. أما أنا فقد عرفت روعة هذا الليل ورهبته أمس حين استقبلت المساء على غير موعد منك، ولكنني مملوء القلب أملًا ألا يتقدم الليل حتى تأتيني رسلك فأنفق معك ساعات كتلك الساعات التي لن أنساها. ولم يكن صاحبي فيما أعلم أقل انتظارًا مني لهذه المفاجأة الحلوة، ولا أقل حرصًا مني على هذه الدعوة الكريمة. إنه لم يتحدث إليك ولكنه رآك واستمع لك، وهذا يكفيه ليملأ قلبه شوقًا إلى رؤيتك وكلفًا بحديثك، لقد استقبلنا الليل يا سيدتي وإن قلبَينا ليضطربان بهذا الأمل ويخفقان بهذه الأمنية، ولقد حاولنا أن نقرأ الصحف وننظر في الكتب، فجعل صاحبي يقرأ ما لا يرى وجعلت لا أسمع لما كان يقول، تركته تائهًا في صحفه وكتبه وتركني ذاهبًا مع الأمل والخيال، كلانا يُظهِر لصاحبه أنه معنيٌّ به ملتفت إليه، وكلانا يخفي على صاحبه أن عقله قد فارقه وأن لبه أسير هناك في ذلك القصر الذي رأيناه وأقمنا فيه وتحدثنا إلى أهله وسمعنا منهم، ولكننا لا نعرف إليه طريقًا ولا نستطيع إليه سعيًا. وانتصف الليل فإذا الأمل كاذب، وإذا الرجاء خائب، وإذا الحسرة لاذعة، وإذا هي تبدي نفسها، وإذا كل منا يرى صاحبه كما هو،

وإذا نحن نفترق لا لنأوي إلى المضاجع، ولكن لنسأل عنك ظلام الليل ونجوم السماء وهذا النسيم المضطرب في الجو.

نعم يا سيدتي، لقد تركت صاحبي لا لأستريح ولكن لأخلو إلى خيالك وإلى ذكرك حين أعيَتْني الخلوة إلى شخصك، فأنفقت ما بقي من الليل جالسًا في شرفة تخرج عن غرفتي شيئًا، أستقبل الليل وآنس إلى صمته الرهيب وأستمتع بهذه الموسيقى الخافتة التي تبعثها فيه أحياء الغابة والحقول. أو أُذعَر من حين إلى حين لهذه الدقات التي تضطرب في الجو، تحسب المسكينة أنها تقيد الليل وتقسمه أجزاء، وتنبئ بما مضى منه وتتنبأ بما بقي، وتتأذَّن بما بيننا وبين الفجر من آمال. وإنها لتفعل هذا كله بالقياس إلى الذين أقفرت قلوبهم من الحب وبرئت نفوسهم من الشوق، فأما الذين رأوا شهرزاد ثم نأوا عنها فليلهم متصل لا ينقضي، ونهارهم متصل لا ينقضي أيضًا، لأن ليلهم ونهارهم عليهم سواء، كلاهما مظلم، وكلاهما جامد، وكلاهما طويل ثقيل، كأن هؤلاء المحبين لا يعرفون الشمس إلا حين يشرق لهم وجه شهرزاد، ولا يعرفون الأمن والهدوء والدعة والنعيم إلا حين يغمرهم جمال شهرزاد.

لقد صدق توفيق الحكيم يا سيدتي، فأنا في هذه الأيام مشغول بالمتنبي، ولكني مشغول به عن كل شيء وعن كل إنسان إلا أنت، فإن أمنيته المُلِحة عليه المضنية له المنغصة لليله ونهاره؛ تشبه أمنيتي الملحة عليَّ المضنية لي المنغصة لليلي ونهاري، ولكني لا أتمنى كما كان يتمنى ملكًا وسلطانًا، ولا أشتهي كما كان يشتهي ثروة وغنًى، وإنما أتمنى لقاءك والاستمتاع بجوارك القريب، وأي مُلك يشبه الخضوع لك أو يعدل الإذعان لأمرك، وأي ثروة تشبه الشعور بأني قريب منك ليس بيني وبين الغنى الذي يمتع القلب والعقل إلا أن أتجه إليك فأسمع منك أو أحس قربك مني؟!

رحم الله المتنبي يا سيدتي فقد أعانني على احتمال الشوق، ويسَّر عليَّ بعض الشيء ثقل الليل؛ لأنه ترجم عما كنت أجد في هذه الأبيات التي تغنى بها ذات ليلة في أنطاكية، وتغنَّت نفسي بها الليلة البارحة في سالنش، ولولا بقية من عقل تأبَين أن تستأثري به كله رحمة بمحبيك؛ لأطاع لساني نفسي، ولاندفعت مغنيًا هذه الأبيات يشق صوتي بها سكون الليل، ويوقظ بها الهادئين الهاجعين من حولي.

أتذكرين هذه الأبيات يا سيدتي؟ وهل تنسين شيئًا؟ وهل ينبغي لك أن تنسي شيئًا؟ استمعي لها فإنها لا تصور المتنبي وحده، وإنما تصور كل محزون كئيب قد حِيل بينه وبين ما يتمنى، وأُكرِه مع ذلك على أن يحيا فيسهر الليل ويضطرب في النهار!

أعزمي طال هذا الليل فانظر — أمنك الصبح يَفرَق أن يئوبا
كأن الفجر حِب مُستزارٌ — يراعي من دُجُنَّته رقيبا
كأن نجومه حَلي عليه — وقد حُذِيت قوائمُه الجبوبا[1]
كأن الجو قاسى ما أقاسي — فصار سواده فيه شحوبا
كأن دُجاه يجذبها سهادي — فليس تغيب إلا أن يغيبا
أقلِّب فيه أجفاني كأني — أَعُد به على الدهر الذنوبا
وما ليل بأطولَ من نهارٍ — يظل بلَحظ حُسادي مشوبا

بهذه الأبيات تغنَّى ضميري بقية الليل، ولكنه كان يضع الشوق موضع العزم؛ فإن فراقك لم يُبقِ لي عزمًا ولا حزمًا. ثم أشار الفجر بإصبعه الوردية التي أَريتِها أنت يا سيدتي لضرير اليونان منذ ثلاثين قرنًا؛ فإذا الليل الجاثم ينهزم، وإذا الشمس تقبل فتبسط الضوء والحياة على كل شيء وفي كل نفسي، ولكني أظل محرومًا ضوء الشمس وحياتها لأنك أنت الشمس والحياة. وأنا أُحمِّل الطير المستيقظة التي تغدو من وُكُناتها فَرِحة مرحة، يُسكِرها نسيم الصبح وبرد الندى وضوء الشمس؛ رسائلي إليك، لعل بعضها أن يمر بقصرك المسحور فيرسل من فيه نغمة تحمل إليك بعض ما أجد من لوعة وما أقاسي من ألم. وأنا أهيم مع صاحبي وجه النهار في الجبال والرُّبى أسأل عن أخبارك طير الغاب وما يعبث بأغصان الشجر من نسيم، وأسأل عن أخبارك هذه الغُدران الضئيلة الصافية التي تنحدر من الجبال متعطفة متلوية تناجي الصخور وتُناغي الحصى لعل في مناجاتها ومناغاتها شيئًا من حديثك يرد إليَّ بعض ما فقدت من أمن وهدوء.

[1] الجبوب: الأرض. وحُذيت: قطعت، فكأنه أراد: قد قُطعت له من الأرض قوائم فليس يبرح.

ولم تحمل إليَّ الطير نبأ، ولم يُبلِغني النسيم خبرًا، ولم تَرُد إليَّ مناجاة الغدران ومناغاتها أمنًا ولا هدوءًا، فأعود قانطًا مستيئسًا، ولكني أجد كتابك، فتبيَّني الآن أمشغول أنا عنك بالمتنبي؟! أكنت زاهدًا في جوارك حين ودعتك؟! أكنت راغبًا عنك حين عدت إلى هذا الفندق الذي أضيق به الآن أشد الضيق؟!

لبيك يا سيدتي، لبيك دعوة كريمة وطاعة سريعة لا تنتظر إلا أن تأمري بأن أَشخَص إليك. لست مشغولًا عنك بشيء ولا بأحد، ولست فارغًا لأتحدث عن كيد توفيق لي عندك، فليس يعنيني إلا أن أبلغ رضاك عني وأضمن ثقتك بي. ومع ذلك، الله يعلم ما أردت بالصديق الأديب شرًّا، ومتى كان القرب منك شرًّا؟! إنما آثرته على نفسي حين دللتك عليه وأنبأتك به، وآثرتك أنت على نفسي يا سيدتي لأن توفيقًا كان يسليني ويلهيني، ويفتح لي أبوابًا من الرضا والبهجة، ويعرض عليَّ فنونًا من العبث والضحك ما كنت لأفرط فيها لولا أني أحسست حاجتك إليه.

لا تيأسي منه يا سيدتي، فتجدين عنده ما تريدين، آمِنيه وهدئي رَوعه، ثم دعيه يرسل نفسه على سجيتها واستمعي لحديثه وأجيبيه جادة حينًا وهازلة حينًا، وانتظري نتيجة ذلك فسترضَين. لقد طلب إليك أن تصحبيه إلى الغدير لتصيدي السمك معه، فاصحبيه يا سيدتي وأظهري أنك تريدين الصيد، فستضحكين كثيرًا قبل أن تبلغي الغدير حين ترَينه فارسًا مغوارًا وبطلًا كمِيًّا قد ملأه الفخر والإعجاب والتِّيه بما يحمل من أداة الصيد، وستضحكين كما ضحكنا حين يبلغ الغدير ويلقي أداة صيده في الماء، ثم يحس حركتها ثم يحس ثقلها، ثم يستيقن يا سيدتي أنه قد ظفر بكنز من هذه الكنوز، التي سحرتِ بها عقل شهريار، ثم يخرج أداة صيده من الماء إلا أنه قد فقد السنارة.

ستضحكين يا سيدتي حين ترَينه يعاود هذا الجهاد مرة ومرة، ثم يرجع معك وقد صَفِرت يده من الصيد، واضطربت نفسه بين الرضا بما جاهد والسخط على ما أخفق، فهو يرثي لنفسه وهو يضحك من نفسه، وهو يحملك على أن ترثي له وتضحكي منه ... نعم وستُغرِقين في الضحك حين ترينه يصطاد نفسه بعد أن عجز عن صيد السمك. نعم يصطاد نفسه يا سيدتي، لا تنكري ولا تَدهَشي، فقد اصطاد توفيق نفسه ذات يوم؛ اختلط في خيطه وارتبك ولم يعرف لنفسه مذهبًا فاستغاث: «أنجدوني فقد اصطدت نفسي»،

وأقبل أصحابنا عليه فلم يخلصوه من سنارته إلا بعد جهد، ثم خافوا عليه أن يصطاد نفسه مره أخرى فجرَّدوه من سلاحه الخطِر، ولفوه في بعض الورق، وقالوا له: احتفظ به ولا تخرجه إلا عند الغدير، ولكنه أضاع سلاحه يا سيدتي، وعاد أعزل إلا من هذه العصا التي لا تنفع ولا تضر.

وأنا قاسٍ حقًّا، أتندَّر بهذا الصديق البائس وقد أحاط به ما وصفت من خطر، وتألَّبَت عليه هذه الأشباح العاتية تريد أن تمحقه محقًا وتسحقه سحقًا. كلا كلا لن ترضى نفسك عن هذا يا سيدتي، ولن تسمحي به، ولن تأذني فيه … من يسليك إذن ومن يسليني ومن يسلي قراء العربية من المصريين والشرقيين، وقراء الفرنسية والروسية أيضًا؛ فقد تُرجِم إلى الفرنسية والروسية كما تعلمين؟!

كلا كلا، ستحمينه وستقومين دونه يا سيدتي إبقاءً على شخصه ورحمةً لأهله وأصدقائه ومحبيه، ثم حفاظًا للأدب وذَودًا عن حرية الرأي، يا للشر يا للخطر يا للبلاء! حتى أرواح الموتى قد مسَّتها عدوى الطغيان، فهي تمقت حرية الرأي وتعاقب العقل حين يفكر، والقلب حين يشعر، والخيال حين يبتكر! ألم يكفِ حريةَ الرأي ما تلْقاه من عَنَت الطغاة بين الأحياء حتى تصبح أرواح الموتى عدوًّا لهذه الحرية، وظهيرًا لخصومها وأعدائها؟! لن ترضي نفسك الأبيَّة عن هذا الذل يا سيدتي، إن الذين يعتدون على حرية الرأي من الأحياء والأموات إنما يعتدون عليك أنت؛ لأنك مصدر الرأي والشعور والخيال، وإن الذين يستَعْدونك على توفيق ويغرونك به لا يستعدونك إلا على نفسك، ولا يغرونك إلا بنفسك، فاحذري يا سيدتي أن تسمعي لهم.

لبيك لبيك، مُرِيني أكن عندما تحبين …»

ولم أكد أُتِم الكتاب وأترك صاحبي يضم عليه الغلاف حتى أحسست حركة خفيفة، وإذا صاحبي ينهض مذعورًا لأن الكتاب قد اختُطِف من يده اختطافًا.

في الحمَّام

مشي الأسير بين الفتيات الثلاث إلى الحمام مطأطئ الرأس، يخفي عنهن وجهه بمعطفه وهو يردد في نفسه قانطًا: أهكذا قضي الأمر؟! ولم يُغنِ عني شيئًا ذلك الحوار الذي دار بيني وبين شهرزاد؟ وبعد! أأترك نفسي حقًّا لهاته الفتيات يفعلن بي الأفاعيل؟ أرى والله أن لم يَبقَ لي غير الهرب.

وسار في سكون ينتهز نُهزة صالحة. وأرادت الجواري أن يجاذبنه الكلام فلم يتلقَّين جوابًا، فقالت إحداهن: عجبًا … إنه كالنائم.

وقالت الثانية: إنه شارد اللب كالذاهب إلى المشنقة!

فأجابت الأخيرة: ربما أفاق ونطق إذا غطَّسناه في الماء البارد.

فاصطكت أسنان الأسير وسَرَت في بدنه رِعدة، غير أنه لزم الصمت. وواصل الجميع السير في دهاليز ممدودة، بعضها مضيء وبعضها مظلم، حتى بلغوا منعطفًا ضيقًا، فوقفت الأولى وقالت: أرى أن تذهب إحدانا فتحضر الصابون، وأن تذهب أخرى فتحضر المواسي، وأن أقود أنا السجين، ثم نتقابل جميعًا عند الحمَّام؟

فرفعت الثانية عقيرتها مَغيظة: عجبًا لهذه القِسمة الضِّيزَى! تختارين لنفسك الانفراد به، ونذهب نحن للتافه من الأمر! كلا، هذا لن يكون، أنا أقود الأسير وأنت تذهبين للصابون!

فصاحت بهما الثالثة: لا أنت ولا هي … بل أنا …

– أنت! هيهات! تعالَ أيها السجين!

– دعيه! تعالَ معي أنا أيها الأسير!

– أيها السجين، قف إلى جانبي أنا.

وتناولنه في أيديهن كالكرة يتنازعنه، وقد ساءت حاله معهن وبُح صوته من الصياح: حسبكن ... حسبكن! قد مزقتن المعطف بهذا الشد والجذب، اتفِقن أولًا فيما بينكن!

– نتفق! هيهات، هيهات أن نتفق بغير هذا!

خلعت صاحبة الكلام نعلها وخلعت الأخريان نعلَيهما، واشتبك الثلاث في معركة حامية الوطيس، والأسير بينهن يصيح: مهلًا، رفقًا! إن النعال لا تصيب إلا قفاي! اتركنني ناحية ريثما تُصفِّين ما بينكن من حساب!

فدفعنه بعيدًا عنهن، فنهض ونفض الغبار عن ثيابه، والتفت في الحال يمينًا ويسارًا فألفى بقربه دهليزًا مقفرًا مظلمًا فانسلَّ فيه هاربًا وهو يقول غير مصدق: تلك هي الفرصة الذهبية التي لن يجود بمثلها الزمان!

في ذلك الوقت كان طه حسين جالسًا إلى صاحبه «فريد» تحت شجرة الزيزفون يصغي إلى ما يقرؤه عليه من شعر «المتنبي»، وهو في حقيقة الأمر لا يصغي إلى شيء ولا يستمع إلا إلى «شهرزاد» الماثلة في أعماق نفسه تهمس إليه بصوتها العذب الرقيق كأنه صوت أجنحة فراش جميل الألوان، أو حفيف غصن مُحمَّل بأزهار الربيع، ذلك الصوت الذي كلما سمعه فُتِن به افتتانًا. إنه يملأ أذنيه الآن، بل إنه يرقص حوله كما ترقص عرائس الجن في المروج. هو شيء غير منظور، لكنه يحس له كيانًا حيًّا وجسمًا نابضًا لا ككل الأجسام! إنه يدعوه في إشارة خفية، ويجري أمامه إلى جهة قصِيَّة. هنا لم يملك الدكتور نفسه فنهض مستويًا على قدميه، فوقف صاحبه عن القراءة مستغربًا: ماذا جرى؟

– هلمَّ بنا إليها.

– إلى من؟

– إلى الفاتنة ربة القصر المسحور.

ففكر «فريد» ثم قال في تردد: ولكننا لم نتلقَّ بعدُ منها دعوة إلى المثول بين يديها!

– لا حاجة بنا إلى دعوة، ولا أحسبها تكره لقائي في أي وقت.

– ولكننا ... نجهل مسالك هذا القصر وهو كثير الدهاليز، والوقت ليل ولم نعتدْ دخوله بغير رسول منها أو دليل.

– قلت لك هلم ولا تزد.

– إنها لمخاطرة.

فضغط «طه» على يد صاحبه ضغطًا قويًّا كاد يؤلمه، وصاح به: إنِّي قد عزمت، وأنا رجل — كما تعرف — صُلب الرأي عنيد. ولا شيء يَثنيني عن اقتحام المخاطر وارتياد المجاهل.

– هذه الصلابة قد عرَّضتك أحيانًا إلى ما تكره.
– حقيقة. ولكني هكذا خلقت، ولا قِبَل لي بتغيير طبعي وسجيَّتي ... هلمَّ.

وفي حَلَك الظلام سار الاثنان مُجدَّين حتى بلغا أسوار القصر المسحور، فتمهلا وجعلا يتلمَّسان في الأسوار بابًا أو مدخلًا فلم يجدا من ذلك شيئًا. وأعياهما التعب فقعدا على الأرض وأسندا ظهرَيهما إلى السور وتساءلا في يأس: كيف السبيل إلى داخل القصر، وكيف دخلنا إذن أول مرة؟! إنه لا باب له. حقًّا إنه لقصر مسحور!

ولم يَدُم يأس طه حسين طويلًا، وسرعان ما أسلم نفسه للقدر كعادته، فالتمس في الظلام يد صاحبه الذي ألجمه الخوف ووحشة المكان وجهل المصير، وهزه هزًّا خفيفًا وقال له: ناولني «سيجارة»!

فثاب «فريد» لنفسه، وأخرج من جيبه لفائف التبغ وقدم إلى الدكتور واحدة منها، ثم أخرج علبة الكبريت وأراد أن يحك العود في السور، وإذا يده قد غارت هي وعود الثقاب في فجوة لا آخر لها، فصاح لساعته: هنا ثغرة في السور؟

– أين؟ أين؟

وقام «طه» في الحال نازعًا من فمه «السيجارة»: فلندخل من هذه الثغرة!

ولم ينتظر من صاحبه رأيًا ولا جوابًا، فأمسك بذراعه ودفعه أمامه إلى داخل الثغرة دفعًا، ثم مشيا قليلًا ثم كثيرًا، ثم أمعنا في المشي دون أن يصلا إلى بصيص من نور، فأوقدا عود ثقاب، فإذا هما يتخبطان في دهاليز طويلة مظلمة متشعِّبة متقاطعة كأنها شبكة منصوبة.

عندئذ صاح «فريد»: حصل.

– ما هو الذي حصل؟

– قد وقعنا فيما نَكرَه.

– كيف؟

– إن لم يكن هذا جبًّا، فأغلب الظن أنَّا الساعةَ في موضع لن نصل منه إلى شيء. آه! وقعنا. من ذا الذي يستطيع أن يخرجنا من هذه الدهاليز التي يضل فيها الخاطر؟!

– وما الرأي؟

– تسألني الآن يا دكتور؟! لم يبقَ من رأي إلا أن نختار لنا طريقًا من هذه الطرق ونسير فيه إلى النهاية.

– كلا ... تلك ليست عادتي ... اضرب بنا في كل طريق.

– لديَّ فكرة؛ ابقَ أنت يا دكتور ها هنا، ولأذهبنَّ أنا ركضًا في كل جانب من جوانب المكان حتى إذا ظفرت بشيء عدت إليك.

– نِعم الرأي ... اذهب وأنا في انتظارك ها هنا.

ذهب «فريد» وابتعد. وبقي الدكتور وحده في ذلك الموضع من الدهليز يفكر في أمره تلك الليلة وفي هذا المأزق الذي أدخل نفسه فيه، وقد كان في الفندق آمنًا مطمئنًّا، لكنه يتبرم دائمًا بالأمن والاطمئنان، ويخلعهما عنه في ضيق كما يخلع الرداء الثقيل في يوم قيظ شديد. ما الذي حمله على ترك جلسته الهادئة تحت الشجرة ليقف هذه الوقفة في الظلام يلتمس صوتًا أو حركة فلا يسمع إلا أنفاسه المضطربة؟! نعم، لقد بدأ القلق والخوف يجدان إليه السبيل، ويُخيَّل إليه أنه يسمع الآن همسات بعيدة، أهي حقيقة؟ أم هو الوهم والخيال بدآ يلعبان على مسرح الرأس التعِب! ولكن الهمسات تقترب وتتخذ رنينًا واضحًا يدوي بين جدران الدهاليز، بل إنه يسمع الساعة صوتَ أقدام تضرب الأرض، إنها تدنو، تدنو والأصوات تتضح، إنها أصوات نساء، نعم لم يبقَ ريب في الأمر، ولم يلبث طه حسين أن أحاطت به الفتيات الثلاث وهن يَصِحن: ها هو ذا! قد وجدناه!

ثم هجمن عليه هجمة واحدة وقبضن عليه بقوة وشدة، وجذبنه جذبًا عنيفًا وهن يقلن في شبه صوت واحد: أيها الهارب!

ذُهِل طه حسين في أول الأمر ذهولًا عَقَل لسانَه، فهذا الانقضاض عليه فجأة في هذا الليل الساجي ليس هين الوقع على النفس، غير أنه ملك سريعًا ناصية أمره وقال دهشًا: هارب؟ على النقيض. إنِّي جئت بنفسي وأقبلت شوقًا وحبًّا ...

فقالت الجواري ساخرات: شوقًا وحبًّا! يا له من مخادع!

وقالت الأولى وهي تقرصه قرصة مؤلمة: أيها الماكر! انتهزت فرصة خلاف دبَّ بيننا وفررت.

– آه! ذراعي! لا معنى لهذا القرص الموجع أيتها السيدة المهذَّبة!

وقالت الثانية وهي تَخِزه بإبرة معها: لقد قلبنا الدهاليز رأسًا على عقب حتى وجدناك!

– آه! آه! كل شيء إلا وخز الإبر!

وقالت الثالثة وهي تعضُّ أذنه: لو عرفت المصير المخيف الذي كان معَدًّا لنا إن كنت ذهبت ولم نعثر عليك!

ولم يُطِق الدكتور الألم، فصاح وهو يضع يده على أذنه: كل هذا قد جاوز الحد! ألا يمكن يا سيدتي أن نتكلم بالعقل وأن نتفاهم بالمنطق ...

فدوَّت في المكان ضحكة الجواري الهازئات: المنطق! سنريك الآن كيف يكون المنطق!

ثم حملنه على أكتافهن حملًا وسرن به سيرًا سريعًا يشبه الجري وإحداهن تقول: لقد أضعت الوقت ومولاتنا في الانتظار، ولا نرى إلا حملك والركض بك! أليس يعجبك هذا المنطق؟!

وأراد الدكتور أن يتكلم وأن يستعلم وأن يستخبر فلم يسمحن له بالكلام. ولم يصرَّ هو كل الإصرار خشية عودتهن إلى القرص والوخز والعض، وهو الآن على كل حال بخير فوق أكتافهن. وبلغت الفتيات أخيرًا مكانًا رحبًا مضيئًا، في صدره باب جميل النقوش كأبواب قصر من قصور ألف ليلة وليلة، فقالت الأولى: ها هو ذا الحمَّام … فلندخل به!

ولم ينتظرن. ولم يستمعن إلى اعتراض الدكتور. فدخلن وتهامسن وتغامزن ورفعنه قليلًا ثم ألقين به دفعة واحدة في حوض كبير مملوء بالماء البارد وهن يضحكن ضحكًا عاليًا.

غاص طه حسين في الماء ثم طفا وظهر وهو يشهق ويسعل، وينتفض وقطرات الماء تتساقط من شعره ووجهه وثيابه، والجواري مُستغرِقات في ضحك مرتفع. وإحداهن تشير إليه وتقول لصاحبتَيها: انظرا! إنه ينتفض كأنه عصفور بلَّله القطر …

فأجابت الثانية على الفور: أي قطر؟! إنه كعصفور غمره البحر!

ونظرت إليه الثالثة وقالت ضاحكة: أنصتا! إنه يريد أن يتكلم.

والتفت طه حسين حقًّا إليهن وأراد أن يقول شيئًا، ولكنه ارتعد وعطس طويلًا، إلى أن هدأ أمره وخفَّ عبء بلائه واستطاع الكلام، فقال لهن: أهي … مولاتكن التي أمرتكن أن تفعلن بي هذه الأفاعيل؟!

فقلن جميعهن في صوت واحد: نعم.

– «شهرزاد» تأمر بهذا؟!

فقالت الأولى: إنها أمرتنا بأكثر من هذا. إننا لم نصنع بك شيئًا بعد.

– أوَلا يكفي ما صنعتن بي؟

قالها طه حسين مرتاعًا على نحو أضحك الفتيات، فتساند بعضهن إلى بعض، وقالت إحداهن له: سترى ما نصنع. أين المواسي؟

فصاح الدكتور من قلب الحوض صيحة مدوية: مواسي؟! أؤُمِرتنَّ بذبحي؟!

فقالت الجواري: كلا، لا تخف، لقد أُمرنا فقط بإصلاح شأنك.

– إصلاح شأني! إذا كان ما حدث حتى الآن مقدمة لإصلاح الشأن فلا شك أن ما هو آتٍ أدهي وأمرُّ!

فقالت إحداهن: كلا، اطمئن، إنا لن نصنع بك إلا خيرًا. سنحلق لك لحيتك وشاربك ونجعل منك فتًى رشيقًا أمرد خليقًا بمجالسة الملكات ومسامرة شهرزاد!

لم يكد الدكتور يسمع كلمة «المسامرة» حتى لمع في رأسه خاطر، وتذكر رسالة شهرزاد إليه ورده عليها، فقال للفور: أيتها الجواري إن في الأمر خطأ، لست أنا المقصود بكل هذا اللطف والعطف!

فقالت الفتيات في تهكُّم ظاهر: ومن غيرك؟

– أخرِجنني من هذا الحوض! فقد تبيَّن لي الأمر.

– ما هذا الهذيان؟! أنخرجك قبل أن نغيِّر هيئتك ونجمِّل سحنتك؟

– ذاك توفيق الحكيم الذي أُمرتن به … أما أنا …

– إننا لا نعرف أسماء، ولم نتسلم أسماء، إنما قد أُعطينا شخصًا، نهيِّئه ونقلبه خير مُنقلَب، ثم نردُّه لمن دفعه إلينا.

– وأين توفيق الحكيم؟

– من هذا؟ إنا لم نسمع قط بهذا الاسم، ولم نرَ الليلة غيرك.

فحَنِق طه حسين، وملأه حقد ويأس وغيظ فانفجر: أكاد أفقد صوابي! أين توفيق الحكيم؟ أيها الناس، دلوني فقط على هذا اللعين وأنا أتكفل بالباقي!

وعندئذ قالت إحدى الجواري: كفى إضاعة وقت! إن الملكة في الانتظار. أين المواسي؟

فصاح طه حسين: انتظرن أيتها الفتيات، إن في الأمر خطأً، وما أنا المقصود، اذهبن بي إلى شهرزاد وهي تحكم في الأمر.

فقالت الأولى: ما بالك تخلط الآن في الكلام؟! أين المنطق الذي كنت تتحدث عنه؟!

وقالت الثانية: إن حكم شهرزاد فيك قد سبق، وأمرها صريح لا إبهام فيه.

وأردفت الثالثة وقد رفعت في يدها الموسى: ها هو ذا الموسى! تقدم! ولا أمل لك بعد الآن في الإفلات ولا فائدة من المطل؛ فإنا لن ندعك حتى ننفذ فيك أمر الملكة ونعيدك إليها حسن المظهر جميل المنظر!

فأُسقِط في يد طه حسين ولم يجد لنفسه مخرجًا، فطأطأ الرأس هامسًا: إنا لله وإنا إليه راجعون!

ثورة الأشباح

استلقت «شهرزاد» على فراشها، وغاصت بين دِمَقس وسائدها، وغاص عقلها في بحار التأملات. لقد كان يدهشها أمر الأسير الذي اختطفته ليبقى إلى جانبها يؤنس وحدتها، فلم تظفر منه بغير الإعراض والرغبة في الإفلات! أتُرى فقدت «شهرزاد» سلطانها على الرجال؟! هي التي من بين نساء الوجود قد فازت وحدها بإخضاع ذلك الجبار «شهريار»، تعجز اليوم ويعجز جمالها وذكاؤها عن اجتذاب مخلوق ساذج مسكين كهذا السجين ذي المعطف الأسود وعصا السمك! أتُراها قد هرمت وهي التي لا عمر لها ولا ينبغي لها أن تهرم؟ أهو عجز وقصور منها حقًّا، أم هو حمق وتقصير من ذلك المخلوق الذي لم يستطع تقدير كنوزها ولآلئها؟! لكن أيمكن أن تَتهم بالحمق وقلة التقدير رجلًا كتب عنها كتابًا فجعلها فيه صنو «إيزيس» و«بيدبا»؟! لكن ما باله إذ رآها الليلة وجهًا لوجه لم يلفظ كلمة تقدير، ولم يُلقِ إليها بكلام عميق، ولم تسمع منه إلا هراء ينم عن استخفاف؟! أهي التي كانت تُدعى إلى صيد السمك من الغدران، أم هي التي كانت جديرة أن يدعوها إلى زيارة هياكل الفكر الإنساني الخالدة على الزمان؟! حقًّا إنها لا تفهم من أمره شيئًا. هي التي تفهم الرجال كامرأة عاشت ألف عام بين الرجال! لا تستطيع أن تفهم هذا الرجل المعقَّد! لكن لماذا لا تريد أن تعتقد أنها قد هرمت قليلًا وأن شعرات قد ابيضت في رأسها الأسود الجميل؟!

وإن المرأة إذا هرمت كان عليها أن تترضى الرجال وأن تسايرهم، وأن تُعنى بالتافه من رغباتهم؛ فإن استبقاء الرجال فنٌّ يجب أن تحذقه المرأة إذا علت بها السن، وضاعت امرأة اعتمدت على سحرها الماضي فجلست بلا حراك تنتظر أن يجثو عند قدميها الرجال! إن لكل سنٍّ طرائقها ووسائلها، ولكل وقت أدوات صيده!

لقد صدق صديقها الحميم طه حسين إذ نصح لها في رسالته ألا تهمل رغبات توفيق التافهة، وأن تتبعه حاملة مثله «السنارة» إلى الجداول يصيدان السمك الصغير، وهي الملكة العظيمة! وأن ترافقه إلى المقاهي الحقيرة إذا طلبها هناك دون أن ترى حرجًا في ذلك أو تحقيرًا من شأن مقامها الجليل! إنها قد نسيت أن للرجال صغائر وحماقات لا يخلو منها رجال الفكر والعقل. فلتتبع توفيقًا في أطواره ولترَ منه ما يكون! نعم هذا هو الرأي، ولكن لماذا أبطأت به الجواري وقد كاد الليل أن يولى؟! هنا نهضت شهرزاد واستوت في فراشها وصفقت بيدها فجاء العبد فقالت: أين السجين؟

– إنه في أيدي الجواري يا مولاتي!

– أمَا فرغن بعدُ من أمره؟ فليسرعن به إليَّ!

– مولاتي!

– ما بك؟ وما هذا التقطيب والغضب على وجهك؟

– هذا السجين، قد بلغَنا من أمره كما تعلمين خبر عظيم.

فهو قد وصفنا في كتاب له وصفًا قبيحًا، وافترى علينا افتراء أثيمًا! وكلنا هنا يطلب رأسه، وقد أقسم «الجلاد» أن يتولى الجزاء بنفسه، وقد تلقى أمرًا من الملك «شهريار» بذلك و«الوزير، والساحر، وزاهدة، وأبو ميسور!»

– ليس يعنيني من أمرهم شيء … كل أولئك أشباح تعيش في الماضي وقد جاءت إذ سمعت بسجن توفيق الحكيم كي تثير قضية تتعلق بالماضي، ولكنهم جميعًا غير قديرين على الحياة في الحاضر والكلام في الحاضر. لقد دخل عليَّ «شهريار» منذ لحظة ففرحت به كأني عثرت على كنز مفقود، لكن وا أسفاه، سرعان ما تبين لي أنه لا يعرفني ولا يعرف عن حياتي اليوم شيئًا، فهو شبح وذكرى، وهو غير قدير أن يعيش خارج المائة والعشرين صفحة التي كتبها توفيق الحكيم، لقد يئست منه بعد قليل، وهو أيضًا قد تركني دون أن يعرفني كأنه نائم أو مجنون.

– إنه يا مولاتي مع الوزير قمر والجلاد والساحر وأبي ميسور وزاهدة.

– نعم مع بقية الأشباح. إنهم يستطيعون أن يفهم بعضهم بعضًا … إياك أيها العبد أن تجلس إليهم.

– إنِّي يا مولاتي أعيش معك اليوم في الحاضر … ولكني أحيانًا …

– كفى! إنِّي لا أطيق الكلام في الماضي طويلًا … إنِّي أعظم من أن أُحبس في عصر واحد، إنِّي لكل العصور.

– مولاتي؟
– ماذا تريد؟
– إن لم نسلم إليهم ذلك السجين فإنهم لن يفارقونا.
– إنها لِمحنة. وما الرأي؟!
– ماذا يهمنا من أمر هذا السجين، فلنقذف به إليهم.
– لم يخب ظني، إن نصفك معهم ونصفك معي!
– إنما أردت يا مولاتي أن أريحك من وجودهم!
– لن أقطع برأي حتى أستشير صديقًا لي. اذهب الآن عني!

وسكتت شهرزاد قليلًا وأطرقت مليًّا. وإذا الباب يُضرب عليها، فرفعت رأسها وأذنت في الدخول، ففُتح الباب ودخلت الفتيات الثلاث يقدن طه حسين في رداء جميل واسع الأعطاف لو لم يكن مزيَّن الحواشي بالذهب والفضة واللآلئ النادرة لحسبته ذلك الرداء الجامعي الذي يرتديه العمداء في الحفلات الرسمية الكبرى، وقد غدا الدكتور حليقًا وسيمًا تطمع في رضاه الجميلات، فتقدمت به إحدى الفتيات وقالت: ها هو ذا يا مولاتي قد هيأناه!

نظرت شهرزاد، ثم أنعمت النظر، ثم قالت كالمخاطبة لنفسها: مستحيل! ماذا فعلتن أيتها الجواري؟!

هنا رأى طه حسين أن من واجبه أن يلقي الضوء على هذا الموقف الغامض، وأن «يرد الأمر إلى نصابه» فقال: مولاتي! إنِّي لست توفيق الحكيم.

– طبعًا.
– إنِّي …

ولم تطق شهرزاد صبرًا فقالت في حدَّة: أوَتجرؤ يا هذا على الدخول عليَّ بهذا التمويه؟!

– مولاتي عفوًا … إنِّي لست في حاجة إلى التمويه … كما تعلمين.
– وأين إذن توفيق الحكيم، وما هذا الزي الذي عليك؟
– سَلي جواريك!

فالتفتت شهرزاد إلى الفتيات ونظرت إليهن نظرة المستفسر؛ فقالت إحداهن في لهجة بريئة صادقة: أليس هذا هو الذي تسلمناه من مولاتي؟

– مطلقًا. أيتها الفتيات.

فالتفت طه حسين إلى الجواري وقال في انتصار: لقد بُح صوتي من القول إن في الأمر خطأً، ولكنهن مضين يصنعن بي ما لا يُصنع!

وعندئذ لم يسع الفتيات إلا أن يعترفن بما حدث من هرب توفيق الحكيم والعثور على هذا الذي حسبوه الهارب. ولم يسع طه حسين إلا أن يقصَّ قصته وما وقع له بالتمام والكمال من وقت أن خرج من داره إلى أن مثُل بين يدَي شهرزاد في هذه الهيئة والزي. وختم حديثه قائلًا للملكة: أرأيت يا مولاتي! لقد صدق المثل العامي «من خرج من داره قل مقداره.»

ولكني مع ذلك راضٍ بما كُتب لي، مغتبط برؤيتك في النهاية على كل حال!

فضحكت شهرزاد وقالت في رقة: أيها الصديق العزيز! إنِّي آسفة لما وقع لك. وآسفة أني لم أبعث إليك رسولًا يحضرك إليَّ بدلًا من الكتابة إليك، ولكنك قد حصلت عندي آخر الأمر، وإني الآن في حاجة شديدة إليك.

– إنِّي خادمك ورهين أمرك.

– أولًا أين هرب واختفى توفيق الحكيم هذا؟ أريد رأيك في ذلك؟

– أرى يا سيدتي أن تطلقي رجالك في أثره يبحثون عنه.

– أين؟!

– أرى أن يبحثوا عنه عند شواطئ البحار والأنهار والجداول والغدران كافة؛ فإن السمك وحده الآن هو الذي يعرف مقره.

– نِعم الفكرة. هنالك أمر آخر شديد الخطر أطلب رأيك فيه؛ أتتذكر في رسالتي أني حدثتك عن أشباح أشخاص توفيق الحكيم، إنهم هنا الآن يلحُّون في طلب رأسه، ولا أراهم يبرحون حتى يسلم إليهم. أأسلمه لهم أم أمنعه؟

– مولاتي! لا هذا ولا ذاك.

– عجبًا! ماذا أصنع إذن؟

– لا إعدام بغير محاكمة، ولا محاكمة بغير قضية. فاشترطي عليهم ألا تسلميه إلا أمام محكمة يُدْلون أمامها بما يتهمونه به وما يريدون من أجله رأسه.

– نعم الرأي. نعم الرأي. إن آراءك في نضجها كآرائي في سن الشباب الأول. لكأني بك قد نقلتها عني واستوحيتها مني.

– كل أفكاري وآرائي مستمدة من ضوئك يا سيدتي!

– بقي أمر واحد؛ من هو القاضي الذي يحاكم صديقنا؟

هنا يفكر طه حسين مليًّا ويقلِّب في ذهنه الأسماء، ثم لا يلبث أن يصيح صيحة الفرح والظفر: وجدته يا مولاتي وجدته. إنه القاضي الذي لا يُرَد حكمه، وهو بعدُ ليس بالمجهول من المتهم؛ فقد ردد اسمه كثيرًا في كتبه، وذكره على أوضاع شتى في كتاباته.

– من هو؟ من هذا القاضي؟

– الزمن!

محنة توفيق الحكيم

وقد غمرني في محضر شهرزاد من الجمال والسحر ومن الظرف والعطف، ومن رشاقة الحركة وعذوبة الحديث؛ ما أنساني صنيع هؤلاء الجواري الماكرات، وكاد يردني إلى الأمن والهدوء وإلى الدعة واللذة، لولا أن خاطرًا ملحًّا كان يتردد عليَّ من حين إلى حين فيذهلني بعض الشيء عما كنت أجد من نعيم، وكأن شهرزاد قد أحست هذا فهي تدق في ظرف يدًا بيد، وإذا الفتاة التي أدخلتنا عليها في الزيارة الأولى قد أقبلت خفيفة ظريفة كعادتها، فانحنت ثم استوت، وإذا شهرزاد تسألها ما صنع صاحب الأستاذ. قالت الفتاة في صوت ساحر: هو هنا يا مولاتي منذ ساعة، قلِق النفس مضطرب البال، لا يصدق ما أؤكد له من مكان الأستاذ بين يديك، ولا يريد أن يطمئنَّ حتى يراه.

قالت شهرزاد: فأدخليه.

ثم التفتت إلى الفتاة وانصرفت، وقالت: أظنك تستطيع الآن أن تخلص لي؟ وهممت أن أجيبها لولا أن عبدها الأسود أقبل مسرعًا فقطع علينا الحديث وهو يقول: أدركي أسيرك يا مولاتي فقد أشرف على الخطر ودنا من البوار. قالت شهرزاد في هدوء يملؤه الدلُّ والتِّيه: وما ذاك؟ قال الأسود: اجتمعت على سجنه الأشباح يا سيدتي، ولولا أني وكَّلت بهذا السجين أشد من في القصر من أبناء أبي قوةً وأيْدًا، وأصلبهم عودًا وأقدرهم على المقاومة، وأصبرهم على الجهاد؛ لاقتُحِم السجن عليه اقتحامًا، ومع ذلك فالأشباح مُلِحة في الهجوم تصطنع فيه فنونًا من العنف الصريح والمكر المغري، ولست آمن أن تظهر على الجند، فإن كانت لك حاجة في أسيرك فأسرعي إليه، فلن يردَّ الأشباحَ عن سجنه إلا مرآك.

وكنت قد نسيت توفيق الحكيم وشُغلت عنه بما لقيت من شدة أول الأمر، وبما كنت أنعم فيه من لين ذلك الوقت، فلما سمعت ذكره وعرفت تعرضه للخطر عادت إليَّ نفسي، فسألت الأسود: وهل ظفرتم به؟ وكيف وجدتموه؟

قال الأسود، وهو يقاوم الضحك مخافة أن يُحفِظ مولاته: أخذناه يا سيدتي وأنفذنا فيه قوانين القصر!

قالت شهرزاد: أوَكنت تظن أن سذاجته تغلب مكري؟! أوَتحسب أن الخروج من هذا القصر ميسَّر لمن دخله؟! وإذن فأي أمن لشهرزاد وأي سلطان بقي لها؟! وأي سحر هذا الذي يحيط بالقصر إذا أتيح لرجل ساذج كتوفيق أن يفرَّ من أهله وينفذ من أبوابه كما يريد؟!

قلت: فإني لم أفرَّ من أهله يا سيدتي، ولكني دخلت عليهم القصر ولم يشعروا بدخولي، وانسبت فيه انسياب الحية ولم يعرفوا مكاني منه. قالت وهي تضحك: فإن هذه قصة أخرى لعلها أشد تعقيدًا مما تظن، أواثق أنت بأن رسلي ليسوا هم الذين أغروك بالخروج في طلب القصر ودلوك على طريقه، وانتهوا بك وبصاحبك إلى هذه الفجوة التي انسللتما منها؟ ولكنَّ في الأمر تقصيرًا من غير شك.

ثم التفتت إلى الأسود قائلة: والفتيات، ماذا صنعتم بهن؟

قال: أنفذت فيهن قوانين القصر يا مولاتي. وهن الآن مشدودات من شعورهن إلى السقف في غرفة العذاب تُصب عليهن السياط صبًّا.

قلت مأخوذًا: أوَتفعلون هذا بهؤلاء الجواري الحسان؟!

قالت شهرزاد: كأن قلبك قد رق لهن، وكأنك نسيت أنهن أعرضن عما كان يجب من إنفاذ أمري وفرغن للهوهن … وما ينبغي لمن اتصل بشهرزاد أن يُشغل عنها بنفسه، فكيف بهؤلاء الإماء اللاتي لا وجود لهن إلا مستمدًّا مني؟!

قلت مستعطفًا: رفقًا بهن يا سيدتي، فقد كن ضعافًا وقد كن أغرارًا، ظننَّ وراء الأَكَمة شيئًا، فلم يجدن إلا هواء وغرورًا.

قالت شهرزاد: وإعراضًا عنهن وفرارًا منهن.

قلت: فإني شافع فيهن.

قالت: سنرى في أمرهن، ولكن لنسرع إلى صديقنا الأسير، فما ينبغي أن تستأثر به الأشباح الضارية.

ولا بد من أن أعيد عليك قصة صديقنا الأسير من بدئها، فإنك لم تعرف إلا آخرها؛ هو الآن محصور في سجنه مغلوب على أمره، تتراءى له الأشباح مُوعِدة مُنذِرة، ولكنها لا تبلغه لمكان هؤلاء الجنود السود، وهو كلما رآها اضطرب من رأسه إلى قدميه، وجرت الرعشة في بدنه كله، فأسنانه تصطكُّ وفرائصه ترتعد، وصوته يخرج من فمه هائلًا مبهمًا لا يُفهَم منه إلا شيء واحد، وهو أنه جزِع يستنجد ويستغيث، فكيف انتهى إلى هذا

السجن؟ عرفنا ذلك من أمره فيما بعد، فلا تسلْ عن ضحكنا منه ولا تسل عن ضحكه من نفسه. وما أظن إلا أن هذه القصة التي وقعت له في دهليز من دهاليز القصر المسحور ستملأ ما بقي من حياته الطويلة إن شاء الله ضحكًا وفرَقًا.

سيضحك منها إذا لقي الناس وأمِن الاعتداء عليه، وسيفرق منها إذا خلا إلى نفسه وأشفق أن تنجم له الأشباح من الأرض أو تهبط عليه من السقف أو تنشقُّ له عنها الجدران.

كان إذن يضرب في دهاليز القصر وقد اتخذ معطفه وقاء من كل شر، لا يخرج من دهليز إلا دُفع إلى دهليز، ولا يفصل عن بهو إلا أُلقي إلى بهو، حتى ضاقت به السبل، وسُدت عليه الطرق، وكان قد منَّى نفسه بالإفلات وزين لها النجاة، وكان قد أخذ ينعم بأول الانتصار ويرى أنه قد خلص من هؤلاء الفتيات الحسان، وأمِن عبثهن بجسمه وعقله معًا، ولكنه يمضي في الأَبْهاء ويدور في الدهاليز دون أن يجد مخرجًا إلى النور! حتى طال عليه الوقت واشتد عليه الكرب وثقلت عليه المحنة، وعَظُم في نفسه البلاء. وإنه لَفيما هو فيه من السعي الذي لا يكلُّ والدوران الذي لا يجدي، وإذا بصيص من نور ضئيل يخلص إليه من بعيد، فيخيل إليه أنه قد وجد خيط أريان، ويرى نفسه غريقًا قد أُتيحت له خشبة النجاة فهو يتعلق إلى هذه الخشبة بيديه ورجليه وأسنانه. وهو يتبع هذا النور الضئيل وقد عقد به أمله كله، ووصل به نفسه كلها. وهو يجمع ما بقي له من قوة ويجري في أثر هذا النور حتى ينتهي إلى فُرجة ضيقة في الجدار فيُدخِل نفسه فيها ويجاهد ويحتال حتى يَنفُذ إلى ما وراء الجدار، وإذا هو في فضاء واسع يضطرب فيه نسيم بارد قوي يردُّ إليه بعض ما فقد من قوته. وكان خليقًا — وقد خرج إلى الفضاء الطلق خائر العزم منهوك القوى — أن يتهالك على الأرض ليستريح، ولكنه يمضي أمامه وقد أسلم ساقيه للريح، وأقسم في دخيلة نفسه ألا يطمئنَّ ولا يستقرَّ حتى يبعد عن هذا القصر البغيض، والفضاء أمامه واسع عريض قد اختلطت أرجاؤه، وأطبقت عليه ظلمة كثيفة يخترقها بين حين وحين هذا النور الضئيل، فيتبعه صاحبنا جادًّا في ذلك كل الجِد، وما يشك في أن قدرة الله قد أرسلت إليه هذا الشعاع فرجًا من حرج، ومخلصًا من ضيق، ولكنه يقف فجأة في شيء من الذهول والدهش كأنه قد أحس شيئًا من طريق السمع أو من طريق البصر، فإذا مضت عليه لحظات قصار زال عن نفسه الشك وفارقها الريب، فهو يحس شيئًا من طريق السمع والبصر معًا، يرى بناء متواضعًا قد قام منه غير بعيد، أو يُخيَّل إليه أن شخصًا ماثلًا قريبًا من هذا البناء، ويسمع صوتًا تحمله إليه الريح لا يفهمه أول

الأمر ولا يثبته، ولكنه يصغي إليه ثم يدنو منه فإذا هو يسمع ويثبت ويفهم ويعي، وإذا هو دَهِش قد كاد يُفقِده الدَّهَش رشده، وذاهل قد كاد يغلبه الذهول على ما بقي له من صواب، إنه يسمع صوتًا عربيًّا يتغنى غناء عربيًّا، فإذا أطال الإصغاء خلص إليه من هذا الغناء شعر عربي فصيح، هنالك ينكر الرجل نفسه، ويتهم حسه، ولا يكاد يشك في أن أطيافًا من هذه الأطياف التي تملأ الجو قد مكرت به واحتالت عليه، حتى أوقعته في شر مما فر منه، ذلك أنه في فرنسا في إقليم سفوا العليا، فإذا أُتيح له أن يسمع صوتًا يتغنى في ظلمة الليل فأقصى ما يمكن أن يكون هذا الصوت فرنسيًّا يتغنى شعرًا فرنسيًّا، ولكن ماذا؟ إنه ليس مجنونًا ولا مختلط العقل، فهو يسمع غناء، وغناء عربيًّا فصيحًا يملأ عليه الجو من حوله ويدعوه، نعم يدعوه ويلحُّ عليه في الدعاء والإغراء، إنه يتبيَّن الألفاظ التي يسمعها، إنه يحفظها، إنه يعيدها على نفسه، إنها تقع من قلبه الجافِّ المحترق مواقع الماء من ذي الغُلة الصادي. إنها ملأت قلبه ونفسه، إنها ملكت عليه أمره، إنها قد استهوته استهواء، واستغوته استغواء، إن هذا الغناء يصل إلى أبيات من الشعر لا يكاد ينتهي إليه البيت منها حتى يعيده كما سمعه كأنه صبي يعيد على معلمه ما يلقى عليه من الكلام:

أهلًا وسهلًا بخائف يمشي مُستوحِش هارب من الوحشِ

نعم أنا والله هذا القادم، إني لأمشي في هذا الفضاء العريض مُستوحِشًا، وما هؤلاء الفتيات اللاتي هربتُ منهن إلا وحشًا من وحش الجن لا من وحش الإنس.

فرَّ من القصر وهو يجهل ما دُبِّر من حيلة ومن غشِّ

نعم والله، لقد فررت من ذلك القصر البغيض وما أدري ماذا دَبَّر لي كيد شهرزاد ومكر طه حسين.

أقبِل فعندي لك الأمان، وما يُدنيك فورًا من أرض سالنشِ

لبيك لبيك، ها أنا ذا آمِن من الخوف، فاحملني إلى سالنش، إلى فندق مون جولي، فقد بعدتُ عنه وقد اشتقت إليه، إني لُمتعَب، إني لمكدود، ما أشد حاجتي إلى الراحة.

إن شئتَ نومًا فعندنا سُررٌ وثيرة فَرشها من القشِّ

من القش، أو من الحطب، أو من الخشب، أو من الحجر، النوم! النوم! أريد أن أنام لأفلت من هذه الأحلام المروعة.

أو شئتَ شربًا فإن بيرتنا تملأ رأس النديم بالوشِّ

لقد نضب ريقي ويَبِس حلقي، وجف لساني حتى كأنه الحطب، بيرة سالنش في تلك القهوة الصغيرة، قهوة الجبل الأبيض التي كنت أخلو فيها إلى نفسي وإلى القدح والقرطاس سبع ساعات كاملة.

أو شئتَ أكلًا فإن جبنتنا لا يأتلي دودها من النَّغشِ

كاممبير، ركفور، روبلوشون، جبنة مصر، يجب أن أكون نائمًا، فما ينبغي أن يكون ما أسمع وما أحس إلا حلمًا!

والحب عندي كما اشتهيتَ، له بَيضٌ عظامٌ قريبة الفقشِ

هنا يمتلئ فم صاحبنا بضحك عريض متهلِّل، وتنطلق ساقاه في الريح، لقد أيقظه هذا البيت ونبَّهه، لقد عرف هذا الصوت، إنه صديقه طه حسين قد أقبل يخلِّصه وينجيه، إن هذا البيت يُذكِّره بذلك السؤال الذي ألقاه ذات ليلة على المائدة حين قُدِّم له لون من الطعام يسميه الفرنسيون بئر الحب، وأراد أن يسأل أيدخل البيض في تكوين هذا اللون، فقال: أفي الحب بيض؟ فضحكت الجماعة، وأجابه صديقه طه حسين: نعم فيه بيض يفقس عن فَرُّوج، هو إذن طه قد طالت عليه غيبتي فأقبل يبحث عني ويستنقذني.

أصحابنا كلهم ذَوو بلَهٍ تأمن منهم مرارة القفشِ

إنه لطه حسين ما أشك في ذلك، إنه يطمئنني ويهدئ رَوعي، وينبئني بأنه لن يعبث بي ولن يتندر عليَّ كلما هفوت في حركة أو حديث.

حياتنا لو علمتَ ناعمةٌ لم يلقَها قطُّ عاهل الحَبشِ

الحبش! وما خطب النجاشي في هذه القصة؟ لقد علمت أنه كان في لندن، ثم ذهب منها إلى جنيف، ثم عاد منها إلى لندن، فما لي وللنجاشي! ألا أزال مختلط العقل؟! أنائم أنا كاليقظان، أيقظان أنا كالنائم؟!

أقلُّ ما في أقلِّها سمكٌ　　　يسبح في بركة من المشِّ

سمك! بركة! مش! فقد أتيح لي إذن كل ما أنا محتاج إليه. أستطيع أن أصيد وأستطيع أن أسبح وأستطيع أن أرتوي.

أقبِل أعنَّا على الهموم فقد　　　ضقنا ذراعًا بالكنس والرشِّ

كلا، كلا، لست يقظان بل أنا نائم، لست نائمًا بل أنا يقظان. لست عاقلًا بل أنا مجنون، لست مجنونًا بل أنا عاقل. ماذا أسمع؟ الكنس والرش! إن طه حسين لا يكنس ولا يرش، ولكنه يقرأ المتنبي ويتحدث عن شهرزاد. أين أنا؟! ماذا دهاني؟! ماذا أصابني؟! ثم تنحدر من عينيه دموع غِلاظ ساخنة، ولكن يدًا ضخمة عريضة ثقيلة تنقضُّ على كتفه، وصوتًا غليظًا أجشَّ يقول له في نبرات مرتعشة يرتعش لها الفضاء من حوله ويرتعد لها جسمه النحيف: هوِّن عليك فما بك من بأس.

هنالك يصيح الأسير الهارب: من أنت؟ ألست طه حسين؟

فيجيب الصوت الغليظ الأجشُّ: كلا يا سيدي، ولكني رئيس الشرطة في القصر المسحور. علمت بفرارك ولم أرد أن آخذك أخذًا عنيفًا، فمددت لك أسباب الأمل، وزينت لك طريق الهرب حتى انتهيت إلى ما كان يجب أن تنتهي إليه من الإذعان لسلطان شهرزاد. والأمور كلها تجري في هذا القصر المسحور على نحو من هذه الدعابة الحرة التي تظهر قاسية بعض القسوة، ولكنها لينة كل اللين، فلا تخف ولا تحزن، واستقبل أمرك راضيًا مطمئنًّا، فما أرى إلا أنه سينتهي إلى ما تحب وترضى. قال ذلك وقاد الأسير إلى هذا البناء المتواضع، حتى إذا تجاوز الباب نظر توفيق فإذا سرير عليه وسائد من القش قد هُيئ له كأنما يدعوه ليستريح، قال توفيق وقد اختنق صوته بالبكاء: ماذا تريدون أن تصنعوا بي؟

قال رئيس الشرطة: نريد أن نريحك شيئًا فقد أجهدك الهرب، ونريد أن نطعمك فقد أضناك الجوع، ونريد أن نسقيك فقد ألَحَّ عليك الظمأ، ونريد أن نرضيك ونُرفِّه عليك فنعود بك إلى غدير لا يفلت منك سمكُه. ثم نريد بعد هذا كله أن نردَّك إلى مولاتنا شهرزاد

لترى فيك رأيها، وما أظن إلا أنها ستدفعك إلى فتيات أخريات مِلاح أو فياح، يُصلِحن من أمرك ثم يُعِدنك إليها خليقًا أن تكون لها سميرًا، فإن شهرزاد إن قضت شيئًا لم يردَّ قضاءها إلا الله.

سمع توفيق هذا كله فخرَّ على سرير القش لا يعي شيئًا، أكان نائمًا؟ أكان مغشيًّا عليه؟ ولكنه أفاق بعد لحظة فإذا هو في مكان مظلم يَنفُذ إليه نور ضئيل شاحب تمنى بعد لحظة لو لم ينفذ إليه، فقد استطاع أن يتبيَّن بفضل هذا النور وجوه ثلاث من الإماء السود كأقبح ما خلق الله وكأبشع ما عرف الناس، وقد انحنين عليه في رفق أيسر منه العنف، وابتسام أجمل منه العبوس، وهن يداعبنه بأصوات مُنكَرة، ويمسحن وجهه وعنقه بأيدٍ خشنة تُجري في جسمه قُشَعريرة فظيعة وهو يصيح بهن: من أنتن؟! ما خطبكن؟! ماذا تردن مني؟! إليكن عني! وكأن زجره لم يكن إلا إغراء، فهن يُقبِلن عليه ويَدنون منه، ويبسمن له عن أنياب كأنها أظفار السباع، ويمددن إليه شفاههن البشعة المنكَرة يُظهِرن الرغبة في تقبيله، وهو يلتمس معطفه ليتقيهن به فلا يجده، وهو يهمُّ أن ينهض ليعدو هاربًا فلا يستطيع؛ لأنه يحس في رجليه ثقل القيد، وإذا هو يتقيهن بالوسائد يحمي بها منهن وجهه، ولكن أيديهن الخشنة تعمل فيما بقي لهن من جسمه عملًا ثقيلًا طويلًا مؤذيًا، حتى إذا بلغ منه الجهد وأدركه الإعياء، وكاد يعود إلى النوم أو الإغماء تفرقن عنه لحظة ثم أقبلن عليه وقد ثاب إليه شيء من رشد وقوة فأجلسنه مترفقات، وقدمن إليه طعامه وشرابه من جبن كاممبير وبيرة سالنش، فيسرع إلى ما قُدِّم إليه من ذلك إسراع النَّهِم الشَّرِه الذي أنهكه الجوع. وما يكاد يفرغ من طعامه وشرابه، ويسترد حظًّا من رشده وصوابه، ويبدأ التفكير في أمره كيف ابتدأ وإلامَ انتهى؛ حتى يرى رئيس الشرطة مقبلًا عليه ومن ورائه غلام أسود نحيف، ولكنه حسن الطلعة يحمل أدوات الصيد كاملة، فإذا رأى توفيق أدوات الصيد عاد إليه نشاطه، وجرت على وجهه المتعَب الشاحب ابتسامة حلوة فيها سذاجة الطفل البريء، وهمَّ أن ينهض ولكن القيد يثقل رجليه، فيثوب إلى نفسه حزينًا مبتئسًا، ولكن صاحب الشرطة يدنو منه متلطفًا له فيحط عنه القيد، ويخلي بينه وبين الحركة والنشاط.

ونهض الأسير سعيدًا بهذه الحرية التي رُدت إلى رجليه، مغتبطًا بهذه النزهة التي تُهيَّأ له عند غدير يصطاد فيه السمك، معجبًا بذكاء هذا الغلام الأسود النحيف الرشيق الذي لم ينسَ من أدوات الصيد ما تعود هو أن ينساه، فاحتمل معه سلة رحبة كأنه ينتظر أن يصطاد سمكًا كثيرًا، ولكن توفيقًا عندما حدَّق في هذه السلة الرحبة عاد إليه الشك

وابتسم فيما بينه وبين نفسه، والتفت إلى رئيس الشرطة قائلًا: «أجادُّون أنتم في أمر هذا الصيد أم لا يزال عبثكم بي متصلًا؟» قال صاحب الشرطة: «هلمَّ يا سيدي، سترى عندنا وتفهم ما لا تريد أن ترى ولا تفهم من أن حياة الناس مِزاج من الجِد والهزل لا تخلص لأحد الأمرين.» قال توفيق وهو يتبع صاحب الشرطة والغلام يتبعه: ما رأيت كالليلة جدًّا وهزلًا، وقسوة ولينًا، وعبثًا وفلسفة. ومضى صاحب الشرطة أمامه يتبعه توفيق والغلام يتبعهما، حتى إذا مشوا دقائق وقف صاحب الشرطة عند باب، ثم أدار في الباب مفتاحًا فانفتح له، ثم دخل وقال لتوفيق: اتبعني يا سيدي. فلم يكد توفيق يخطو أمامه خطوات حتى ارتد مسرعًا وقد أشاح بوجهه وقد وضع يديه جميعًا على أنفه وفمه. قال صاحب الشرطة: اتبعني يا سيدي. قال توفيق: إلى أين؟ قال صاحب الشرطة: إلى الصيد! قال توفيق: أي صيد؟ قل إلى الموت، ما هذه الريح الكريهة القاتلة؟! قال صاحب الشرطة وهو يضحك: إنها الريح التي تحبها وتَكلَف بها؛ ريح الجبن. لقد أكلت منه حتى عِفته، فما لي وللجبن! وأين يكون الجبن من الصيد؟! قال صاحب الشرطة وهو يلحُّ في رفق: اتبعني يا سيدي، واعلم أن المزاح في قصر شهرزاد لا يكذب أبدًا. أنسيت البيت الذي استهواك منذ حين:

أقلُّ ما في أقلِّها سمكٌ

قال توفيق:

يسبح في بركة من العسلِ

قال صاحب الشرطة: هذا كلام تقرؤه في ديوان المتنبي مع صديقك طه حسين. وكنت خليقًا أن تصطاد سمك السكر واللوز من بركة العسل لو لم تخالف عن أمر شهرزاد، فأما وقد فعلت، فستصطاد الفسيخ والرَّشال والسردين من بركة المش. ثم أحس توفيق كأن قوة خفية تحمله وتدفعه إلى الأمام، ونظر فإذا هو قد شُد إلى كرسي من الخشب وأُجلس إلى حوض طويل عريض يضطرب فيه سائل كدِر كريه، ويلعب فيه سمك مختلف الألوان والأحجام. وإذا أداة الصيد في يد توفيق، وإذا صاحب الشرطة يقول له في أناة وهدوء: تستطيع أن تلهو بالصيد حتى نأتيك. ثم ينصرف عنه وينصرف عنه الغلام. ويهمُّ توفيق أن ينهض ليتبعهما فلا يستطيع؛ لأنه قد شُد إلى كرسيه شدًّا. على أن محنته

هذه لا تطول، فقد اصطاد سمكتين أو سمكات، وكان كلما أخرج واحدة منها وهمَّ أن يخلِّصها من السنارة وثبتْ إليه هذه تَعلَق بأنفه، وهذه تعلق بخده، وهذه تعلق بإحدى أذنيه، وإنه لفي هذا الكرب العظيم والعذاب الأليم، وإذا ضجيج يُسمَع من بعيد، ثم يدنو شيئًا فشيئًا، ثم يَعظُم حتى يملأ الجو، وإذا صاحب الشرطة يُقبِل ومعه جماعة من الجند فيحملون توفيقًا وقد خارت قواه، ويسعون به مسرعين إلى حيث يلقونه إلقاء في هذه الحجرة التي تهاجمها الأشباح، وتقوم دونها الجنود السود. وقد أدركته شهرزاد وأنا معها ولم يبقَ فيه إلا رمق من حياة، فلم تكد الملكة تدنو من السجن حتى انحاز عنه الأشباح ناحية، وأقاموا مع ذلك مُلحِّين يطلبون رأس هذا الأسير الذي أساء إليهم في أنفسهم وكرامتهم وأعراضهم، ويُقسمون لا يَريمون حتى يبلغوا منه ما يريدون. قالت شهرزاد في صوت كأنه حديث الورد النضر — إن كنت قد سمعت للورد النضر أو الذابل حديثًا: عودوا إلى مكانكم من القصر، فسيكون لي معكم حديث، ولكم عليَّ ألا تنصرفوا إلا راضين.

سمع الأشباح هذا الحديث الحلو من ذلك الصوت العذب، فانصرفوا في أناة وهدوء، وهمَّت شهرزاد أن تعود أدراجها، ولكني قلت لها مستعطفًا: والأسير يا سيدتي؟ ألم يأنِ لك أن ترديه إلى ما أنت أهل له من العفو والفضل؟! قالت: بلى، ولكن بعد أن يأخذه الفتيات الحسان فيُصلحن من أمره ويُعدنه إليَّ كما أريد أن يكون. وما أتمَّت هذه الجملة حتى أقبلت الفتيات الثلاث الحسان مستخذِياتٍ يسعين على استحياء، ويخفضن رءوسهن ذلًّا وانكسارًا، فأخذن توفيقًا وأحطن به وانصرفن معه إلى الحمام.

وتعود شهرزاد وأنا معها إلى حيث كنا؛ نأخذ فيما كنا فيه من حديث المحاكمة لهذا الأسير البائس، ونلتمس الحيل والوسائل إلى استنقاذه من هذه الأشباح الضارية والأرواح الباغية، وأنا أهوِّن الأمر على شهرزاد وأؤكد لها أن الزمان قاضٍ عدل حازم لا يعرف الضعفُ ولا الظلم إلى نفسه سبيلًا، تتغير الأشياء من حوله وتتبدل الظروف وتلتبس أخلاق الناس، ويتنكَّر الأحياء للأحياء، ويتنكر الأموات للأموات والأحياء أيضًا، تنقضي الدول وتقوم مكانها دول أخرى، وتُثل العروش وتُبنى مكانها عروش أخرى، ينتظم أمر الناس ويضطرب، وتجتمع كلمتهم وتفترق، والزمان كما هو ثابت مستقر لا يَحول ولا يزول. وإن توفيقًا لم يُقدِم على ما أقدم عليه حين كتب قصته إلا وهو عالم بما يأتي وما يدع، مقدِّر لما سيلقى من نقد، متهيِّئ لاحتمال ما سيتعرض له من تبعات، وهو قد ثبت للأحياء فليس عليه خوف من الأموات. وإنا لفي هذا الحديث وإذا شهرزاد تبعث من فمها

الظريف الدقيق آهة الفرِحة المرحة المبتهجة الطَّروب، فقد انفرجت الأستار الجانبية عن توفيق الحكيم وهو أجمل منظرًا وأبهى طلعةً مما يستطيع أصدقاؤه أن يتصوروا مهما تذهب بهم الظنون.

والفتيات الثلاث الحسان يعلمن وحدهن ماذا أنفقن من جهد، وماذا سلكن من حيلة ليرددن توفيق الحكيم إلى شهرزاد شابًّا وسيمًا أنيقًا رائع الجمال. ومن يدري لعله يقصُّ عليك سيرته معهن أو سيرتهن معه حين يكتب مذكراته في يوم من الأيام.

في حضرة شهرزاد

ألقى توفيق الحكيم على المكان نظرة ذاهلة حيرى، وإذا عيناه تقعان على شهرزاد الجميلة بين وسائدها الحريرية الموشَّاة بالذهب والفضة كأنها الشمس بين النجوم، وقد مثُل بين يديها الدكتور طه حسين يتألق في ثوبه المزركش ووجهه الوضَّاء كأنه القمر. فما تمالك الأسير أن صاح: يا للعجب! طه حسين أيضًا، حليقًا رشيقًا، وسيمًا أنيقًا!

شهرزاد: ينبغي لمن دنا مني أن يكون كذلك!

طه (في خيلاء): أوَيعيش إلى جانب شهرزاد إلا من مسَّته يد الجمال؟!

توفيق: كلام جميل! لكن ما قولكما …

شهرزاد: تكلم أيها العزيز!

توفيق: أمِن الجمال ما صنع بي صاحب شرطتك يا سيدتي العزيزة؟!

طه (يضحك ضحكًا قويًّا): ماذا صنع بك؟

توفيق: أتضحك؟!

طه: قُص علينا ما جرى لك بالتمام والكمال.

توفيق: وأنت قُص عليَّ بالتمام والكمال سر هذا الضحك الذي لا أفهم له معنًى!

طه: أما أنا فأفهم له معنًى بديعًا!

شهرزاد (باسمة): وأنا كذلك أفهم له معنًى رائعًا!

طه (مترنمًا باسمًا):

إن شئتَ نومًا فعندنا سُررٌ　　وثيرة فَرشها من القشِّ
أو شئتَ شربًا فإن بيرتنا　　تملأ رأس النديم بالوشِّ
أو شئتَ أكلًا فإن جبنتنا　　لا يأتلي دودها من النَّغشِ

توفيق (وهو كظيم): لا بأس!

شهرزاد (تستطرد مترنمة باسمة):

والحب عندي كما اشتهيتَ، له بَيضٌ عظام قريبة الفقشِ
حياتنا لو علمتَ ناعمةٌ لم يلقَها قطُّ عاهل الحَبشِ
أقلُّ ما في أقلِّها سمكٌ يسبح في بركة من المشِّ

توفيق (في تقطيب): مرحى! مرحى! أرى أنكما على علم واسع بكل ما وقع وكان …

طه: أمر واحد لا ندري عنه شيئًا.

شهرزاد: نعم، أخبرنا ما فعلت بك الفتيات في الحمام؟

توفيق: فتياتك يا سيدتي خليعات، وما كان من أمرهن معي ليس مما يَحسُن ذكره في حضرة الملكات!

طه (في ضحكة خبيثة): أكان الماء باردًا أم دافئًا؟

توفيق: كان كل شيء باردًا! استرحت الآن؟! واستراحت جلالتها؟!

شهرزاد: وا أسفاه! إنك قد غضبت. ونحن لا نحب لك أن تغضب!

توفيق: وماذا تحبين لي يا سيدتي؟

شهرزاد: كل الخير.

توفيق: يا لك من ملاك طاهر!

طه (في خبث ومكر): أتتهكَّم على مولاتنا؟!

توفيق: سبحان الله في طبعك يا دكتور! إنك تلقي الكلمة فتحرج بها المواقف! وتعقد المسائل، ثم تقول عني بعد ذلك إني رجل معقد!

طه (في قوة): أنا صريح. ألقي كلمة الحق صريحة!

شهرزاد: نعم. وهو يلقيها في جُرأة ولا يخشى فيها لومة لائم. ومن أجل ذلك أحبه.

توفيق: هنيئًا لك به! وهنيئًا له بك!

شهرزاد: عجبًا من العجب! أدرك بين نبرات صوتك …

طه: وأنا أيضا أدرك …

توفيق: ماذا تدركان أيها الصاحبان المتفقان؟!

شهرزاد: نبرة تنمُّ عن غيرة خفية إذ قلت إني أحبه!

توفيق: دخلنا منطقة الكلام الفارغ الذي لا تحذقه غير المرأة!

طه (صائحًا): أستغفر الله! أستغفر الله.

شهرزاد (لطه): دعه! فإن عداوته للمرأة سوف تكلِّفه ما لا يطيق.

طه: أريد أن ألقي كلمة صريحة ولكني أخشى أن يقول عني …

توفيق (مسرعًا): إياك أن تلقي شيئًا. أهون على نفسي أن أُلقَى أنا في بركة «المش» مرة أخرى من أن تلقي أنت في أمري كلمة حق، أو أن تلقي أمامي شهرزاد كلامًا في الحب والغرام!

شهرزاد: يا صديقي! أود لو أفضيتَ إليَّ بسرٍّ.

توفيق: ليس عندي سر.

شهرزاد: ما هذا الفتور والنفور بيني وبينك اليوم؟

طه: ما من سر غير أنه مثل أغلب الشعراء وأهل الفن يلفظ النعمة ثم يبكيها!

شهرزاد (لتوفيق): أستبكيني غدًا؟!

توفيق (يصمت ثم يفكر قليلًا وينظر إلى شهرزاد قليلًا ويهمس): ربما، إني من فصيلة لا تغرد إلا فوق أطلال نعمة ذاهبة وآثار هناء ضائع!

شهرزاد: نعم، هو مرض الشعراء والفنانين! وإن شئت فهو ناموسهم الطبيعي. كم أرثي لأولئك الأشقياء البائسين!

توفيق: يعجبني رثاؤك الحار هذا يا سيدتي! … تُوقعين الناس في البلاء ثم تَرثين لحالهم!

شهرزاد: من أوقعتُ في البلاء؟

توفيق: لا أريد أن أبعث الماضي فأذكر لك شهريار وقمرًا وغيرهما ممن تتراءى لي أشباحهم اليوم ثائرة عليَّ؛ إنما أريد أن أذكر لك رجلًا ماثلًا أمامك، وبلاء لم يمضِ على وقوعه غير قليل!

شهرزاد: أنت؟

توفيق: نعم.

طه: أتسمحان لي أن ألقي بكلمة حق صريحة …

توفيق: أقسم بالله ثلاثًا إن نطق طه حسين بكلمة حق أو باطل لأقذفن بنفسي من النافذة!

شهرزاد (لطه): انتظر هُنَيهة يا عزيزي حتى تهدأ نفس صديقنا!

طه: قد سكت.

شهرزاد: إنك تحسبني أنا التي أمرت بك صاحب شرطتي ورجالي!

توفيق: وهل في هذا القصر آمرٌ ناهٍ سواك؟!

شهرزاد: إنك تبالغ في مقدار أمري ونهيي!

توفيق: يا للعجب! أهذا صحيح؟!

شهرزاد: ثق أن هذا صحيح، وأني لم أحب لك كل ما صُنع بك. ولو استطعت أن أمنعك وأدرأ عنك لفعلت. قلبي مُفعَم بالخير والحب، ولكن سلطاني قاصر …

توفيق: أيُطلَب إليَّ أن أصدق هذا الكلام؟! أنت الملكة العظيمة صاحبة الحول والطَّول في قصرك هذا على الأقل!

شهرزاد: ثق أن الملوك بل الآلهة لا يستطيعون دائمًا أن يصنعوا كل ما يشاءون!

توفيق: وما قيمة ذلك الإله الذي لا يستطيع أن يصنع كل ما يشاء!

شهرزاد: وهل يُتصوَّر كون منظَّم يديره إله يستطيع أن يعبث بكل من يشاء وقتما يشاء؟!

توفيق (يلتفت إلى طه): ما رأيك يا صديقي الدكتور؟

طه: عجبًا لك! الآن تطلب إليَّ الكلام في هذا الموضوع الشائك حيث يجب عليَّ السكوت؟!

توفيق (لشهرزاد): أرجو منك يا سيدتي أن تطلبي إلى صديقك الجريء أن يلقي الآن كلمة حق صريحة!

طه (لشهرزاد): كلا يا سيدتي العزيزة لا تفعلي، إني الآن عميد مسئول، ولا شأن لي بالكلام في الأديان والآلهة. وحسبي ما حدث لي قديمًا.

شهرزاد (لطه باسمةً): يظهر أن صديقنا ليس ساذجًا إلى الحد الذي نظن.

طه: قلت لك إنه معقَّد.

توفيق (لطه): أأنا معقَّد لأني طلبت رأيك في موضوع دقيق؟

طه: أسنعود إليه؟ رجائي الخالص منك أن تترك آلهة الإغريق والرومان وشأنهم!

توفيق: إن شهرزاد هي التي ذكرت الآلهة، وما أردت منها إلا أن تذكر لي صاحب الأمر الأعلى في هذا القصر.

طه: نعم، تكلما في شئون هذا القصر.

شهرزاد: في هذا القصر وغير هذا القصر، هنالك سلطان أعلى يخضع له كل كائن حي وغير حي، وكل خالق وكل مخلوق.

توفيق: من هو هذا السلطان؟

شهرزاد: القانون.

توفيق: وأي قانون هذا الذي أمر بتعذيبي اليوم؟

شهرزاد: قانون القصر.

توفيق: ومن سنَّ هذا القانون؟

شهرزاد: أنا.

توفيق: أوَتخضعين له؟

شهرزاد: لا مناص لي من الخضوع، وإلا اختلَّ نظام القصر وحلَّت فيه الفوضى.

توفيق: يا للعجب! أعرف حكومات شتى تسنُّ القوانين ولا تخضع لها ...

طه: حقًّا ... أذكر أن قوانين الجامعة ... (ثم يسكت في الحال).

توفيق: تكلم!

طه: كلا ... لا شيء.

شهرزاد (في سخرية)**:** نعم إن البشر لهم هذا الامتياز على الآلهة؛ فهم يستطيعون أن يعبثوا بالقوانين التي يسنُّونها، أما الآلهة فلا يستطيعون مطلقًا أن يحيدوا قيد أنملة عن النظام الذي وضعوه، والقانون الذي خلقوه!

توفيق (في إعجاب)**:** إنهم آلهة!

شهرزاد: وبعد؟ أرأيت يا عزيزي كيف أني بريئة مما ألَمَّ بك، وأن قلبي لا يمكن أن يحلَّ فيه غير الحب والصفاء؟!

توفيق: وأن ما نزل بي هو من فعل القانون؟!

شهرزاد: هو ذاك.

توفيق: ربما كنت صادقة. إنِّي دائمًا يخيَّل إليَّ أن العظمة في عليائها لا تعرف غير الصفاء. ولا أتصور خالقًا ينظر إلى مخلوقاته نظرة غير نظرة الصفاء العميق!

طه: هذا كلام طيب. وما دمنا في صدد الصفاء، فما يمنعنا الآن من أن نعمر قلوبنا به، وأن يُقبِل أحدنا على الآخر باسمَ الثغر صادق الود؟!

شهرزاد: لا أحَب إلى نفسي من هذا!

توفيق: وأنا أيضًا ... لا أحَب إلى نفسي منه.

شهرزاد (في فرح)**:** حتى أنت؟! لا أصدق ما أسمع.

توفيق: يا للعجب! ما ظنك بي؟ أترينني بهذا المقدار إنسانًا لا يعرف الود؟!

شهرزاد: كدت أظن هذا.

طه: أؤلقي كلمة حق صريحة؟!

توفيق: ألقِ الآن ما شئت.

طه: إني أعرف توفيق الحكيم أحفظَ الناس للود.

توفيق: أتتهكم؟

طه (مأخوذًا): سبحان الله! احكمي يا سيدتي بالعدل! أأنا تهكمت الآن؟

شهرزاد: على النقيض ... إن في صوتك صدقًا وإخلاصًا.

توفيق (في خجل وندم): إني آسف. لقد أسأت الظن بصديقي ... ولم أصدق ذلك القول منه.

شهرزاد: لو عرفت ما يصنع صديقك من أجلك ... إنه لم ينقطع عن التفكير معي في الْتِماس الحيل وتدبير الوسائل إلى استنقاذك من هذه الأشباح الثائرة عليك.

توفيق: أهو صنع هذا؟

شهرزاد: إنه فعل أجمل من هذا؛ إنه رأى إقناع الأشباح بالامتثال إلى حكم «الزمن» فيك. وهو واثق أن كلمة هذا القاضي ستُنصِفك وتنصرك عليهم جميعًا.

توفيق: وإذا لزم الزمنُ الصمتَ ولم يتكلم في أمري بخير أو بشر؟

شهرزاد: إنه قد دُعي إلى الكلام والحكم، في مجلس تحضره أنت ويحضره المطالبون برأسك والشهود العدول، وقد وعد بالكلام والحكم في الأمر.

توفيق: المطالبون برأسي!

شهرزاد: أوَلا تعرف أنهم طلبوا رأسك؟!

توفيق: وما ذنب رأسي؟! أخزاهم الله!

شهرزاد: ألم يخرجوا منه؟! إنهم يريدون تحطيم المكان الذي خرجوا منه على تلك الصورة التي لا تُرضيهم!

توفيق: وكيف يحطمونه؟!

شهرزاد: «الجلاد» قال إنه سيتولى ذلك، فهي مهنته.

توفيق: ذلك «الجلاد» العاطل!

شهرزاد: إن أمرك الآن رهن هذه «القضية».

طه: إنها ستكون قضية «الفكر والأدب».

شهرزاد: ينبغي أن تستعد للدفاع عن نفسك.

توفيق: والقاضي ...

شهرزاد: قلت لك هو «الزمن».

طه: أظنك لا تطمع في أعدل منه!

توفيق: ومتى يوم المحاكمة؟

شهرزاد: لم يُحدَّد بعد؛ فقد رأى القاضي أن يبدأ بدرس موضوع القضية، وقد طلب نسخة من «الكتاب» فأرسلت إليه.

توفيق: كل هذا عجيب. وكل هذا لم يكن في الحسبان. أنا الذي جاء إلى جبال سافوا طلبًا للراحة والهدوء؟!

طه: اصبر! لئن حكم «الزمن» لك فأي انتصار يكون وقتئذٍ للفكر وحرية الفكر؟! وعند ذاك ننشر هذا الحكم في الصحف معلنين انتهاء عهود الظلام وابتداء عهد النور!

توفيق: وإذا حكم بتسليم رأسي إلى ذلك الجلاد الذي باع سيفه لصاحب خان يحرق فيه القِنَّب، ويؤمُّه أنصاف المجانين؟!

طه: كلا ... إن إيماني كبير بحكمة هذا «القاضي».

توفيق: وأنا ... مع الأسف ...

ولم يُتِم توفيق الحكيم عبارته، فقد هبَّت فجأة ريح عاصفة خلعت أستار النافذة، ودخلت القاعة مُحمَّلة بغبار كثيف في لون الرماد، ألقته على فرش «شهرزاد» كما يُلقَى الشيء ... ثم خرجت الريح من حيث جاءت، وهدأ المكان كأن شيئًا لم يحدث قط. ونظرت شهرزاد إلى فرشها، فإذا الرماد عليه قد اتخذ هيئة الخطوط والحروف، وإذا هي رسالة تُقرأ موجَّهة إليها، فطالعَتْها بإمعان ثم صاحت: تلك رسالة من «الزمن»!

طه (في جِد واهتمام): ماذا يقول فيها؟

شهرزاد (في كآبة): وا حزناه!

طه (في قلق): بحقك ماذا؟

شهرزاد: إنه لا يريد أن يبقى المتهم طليقًا، ويعلن أنه سيأمر به فيُحبَس حبسًا احتياطيًّا حتى يصدر فيه الحكم.

توفيق (لطه متهكمًا): أرأيت «حكمة» هذا القاضي الذي جئتني به!

شهرزاد: صبرًا ولا تخف!

طه (لشهرزاد): وأين يكون الحبس؟

شهرزاد: في مكان لا يعرفه غير «القاضي».

طه: وكيف يُقاد المتهم إلى ذلك المكان؟

شهرزاد: ربما أمَر به الزوابع فاختطفته!

توفيق (صائحًا)**:** خطف آخر! حِرت والله وكدت أُجَن لأمر هذا الخطف، ألا يعرفون وسيلة أخرى في هذا المكان غير هذه؟! إذا طُلبتُ للمسامرة أُخطف، وإذا طُلبت للمحاكمة أُخطف! ألا نكون في أمريكا دون أن نعلم؟!

القلق على توفيق الحكيم

قلت وقد نهضت متثاقلًا كئيبًا: فهل تأذنين لي يا سيدتي في أن أودعك الآن لا قاليًا ولا ساليًا؟! قالت: في هذه السرعة! وما يُعجِلك؟ قلت: فإن لي يا سيدتي أهلًا ما ينبغي أن تطول عنهم غيبتي. قال توفيق في غضب وخبث: وعملًا ما ينبغي أن يطول إهمالك له. قلت في ضحك ورثاء: هو ذاك. قالت شهرزاد: نعم ذاك، إن لأهلك عليك حقًّا، وإن لعملك عليك حقًّا، فأما الذين ليس لهم في فرنسا أهل ولا عمل …

قال توفيق: فمن الممكن أن يُخطَفوا وأن يُسجَنوا وأن تلحَّ عليهم المصائب وأن تُفعَل بهم الأفاعيل. قالت شهرزاد، وقلت معها ضاحكًا: هو ذاك. قال توفيق في صوت محزون تكاد تخنقه العَبرة: لست جادًّا فيما تعزم عليه من الانصراف. قلت: كل الجد، وإنك لتعلم أني لا أستطيع البقاء، ولست أدري فيم حرصك على بقائي! قال: أما أنا فأعلم فيم حرصك على الانصراف، إنما تريد أن تتركني وحيدًا أقاسي ما أقاسي من الجهد، وأحتمل ما أحتمل من الهم، وألقى ما ألقى من العناء. قالت شهرزاد: شكرًا لك يا سيدي، ما أعرف أدبًا أجمل من هذا الأدب، ولا ظرفًا أرق من هذا الظرف. قال توفيق مرتبكًا: سيدتي، إنك لتُسيمينني ما لا يُسام، ولست أفهم كيف تنتظرين الأدب والظرف من رجل مثلي قد صُبت عليه المحن، مخطوف يراد به الخطف، وسجين يراد به السجن، وأسير كان يطمع في حريته فإذا أقصى آماله سجن جديد لا يعرف أين يكون، ولا كيف تكون حاله فيه. قلت: هوِّن عليك فلست أرى بك بأسًا، ولو كنت مكانك لنعمت بالساعة التي أنا فيها، ولأرجأت التفكير في الخطر إلى وقت وقوع الخطر. قال: فإني لا أعلم أقريب هذا الخطر أم بعيد، وإن ما أنا فيه الآن لهو الخطر كل الخطر، أوَتظنني قد عرفت حقًّا أين أنا وماذا يُراد بي ومتى أنا راجع إلى ما كنت فيه، وتفضلت شهرزاد فشيعتني إلى باب غرفتها وهي

تقول في صوتها المشرق الذي يغري بالبقاء لا بالانصراف: «إلى اللقاء» وإلى اللقاء القريب، أليس كذلك؟

وأُلقيت من دوننا الأستار وقد أسرع إليَّ صاحبي فالتفتُّ إليه ضاحكًا وأنا أقول: ما ينبغي أن يراني الناس ولا أن يراني أهلي في هذا الزي الغريب. قال صاحبي دهِشًا: أي زي؟! وهممت أن أتكلم، ولكن دهشي لم يكن أقل من دهش صاحبي حين نظرت فإذا أنا في زيي القديم الذي دخلت به القصر من تلك الفجوة، لا أعرف كيف عاد إليَّ، ولا أذكر كيف نُزعت عني زينة الاستقبال، وأريد أن أسأل صاحبي دهشًا عن سر هذه الفتنة التي لا أعرف أولها ولا أعرف آخرها؛ فأنا أذكر كيف خُلع عليَّ ذلك الرداء الجميل الذي لقيت به شهرزاد ولا أعرف كيف خُلع عني، وأعرف كيف خرجت من زيي القديم منذ حين، ولا أعرف كيف دخلت فيه الآن، ولكن الفتاة الجميلة الرشيقة تدنو مني في دعابة وظرف وهي تقول: لا بأس عليك يا سيدي، فإن الزي الذي تلقى به شهرزاد لا ينبغي أن تلقى به أحدًا غيرها، ولا تنسَ أنك في القصر المسحور.

وأبلغ الفندق بعد لحظات فإذا أنا أُستقبل في كثير من التجهم، وغير قليل من السخط والإعراض، فلم تتعود أسرتي أن تفتقدني فلا تجدني، ولا أن تراني أغيب عنها دون أن أنبئها بعزمي على الغيبة، وبالغرض الذي أنا قاصد إليه، والمكان الذي تستطيع أن تلتمسني فيه. وأنا أريد أن أتحدث إليها بجليَّة الأمر وأنبئها بحقيقته، وهذا لساني يتحرك في فمي يريد أن يأخذ في بدء الحديث، ولكني أرده إلى الصمت والسكون مشفقًا من العاقبة التي لا شك فيها، وهي ضحك الصبيَّين وإغراقهما في الضحك، وإشفاق زوجي وإلحاحها في الإشفاق مما أقول. هم جادون في غضبهم، ولو قصصت عليهم الأمر من أوله لأنكروه، ولرأوا أني أهزل حين يجدُّون، وأتكلف حين يتبعون طبيعتهم، ولَظن الصبيَّان أني أعللهما ببعض هذا القصص الذي كنت أعللهما به أثناء الطفولة حين كانا يصدقان كل ما كان يقال. ومن لي الآن بأن يصدق هذان الصبيان — وهما ينكران ما يريان — وأن تصدق أمهما قصة هذا القصر المسحور الذي يقوم عند قمة من قمم الألب، وقصة اختلافي إليه واشتراكي فيما يقع فيه من الأحداث، كلا، ما ينبغي أن أحدثهم بشيء من ذلك، فلن يزيدهم هذا الحديث إلا غضبًا وإشفاقًا، ولعله يدفع هذين الصبيين إلى أن يظنا بأبيهما الظنون، ويريا أنه من العجز والقصور بحيث لا يستطيع أن يعلل غيبته بعللها الصحيحة الواضحة، فهو يتكلف لها ما يتكلفه الأغرار من الحيل والمعاذير.

فأنا إذن أجتهد في المداورة، وأحيد عن القصة كلما دُفعت إليها، ولكن الأمر يتعقد فجأة؛ فهم يسألونني عن صاحبي توفيق ما خطبه، أو أين ذهب أو كيف مضى على وجهه

هكذا دون أن يودع قومًا كان معهم أو ينبئهم بمذهبه أو يستأذنهم في الرحيل، فإذا زعمت لهم أني لا أعرف من أمره شيئًا أنكروا هذا كل الإنكار، ولاموني عليه كل اللوم، وزعموا أني مقصر في ذات الصديق، تُلِم به الأحداث فلا أحفل به، وينزل به المكروه فلا أسأل عنه، ومن يدري لعله استجاب لهذه النزوات التي تَعرِض له فخُيل إليه أنه يستطيع أن يتسلق الجبل في ساعة أو ساعات كما كان يقول، ولعله همَّ بذلك فمضى لطِيَّته، ثم اختلط عليه الأمر وتقطعت به الأسباب، فهو لا يدري كيف يعود. ولعله تعرض لأكثر من هذا الشر فهوى إلى قاع سحيق، أو غمره هذا الثلج الذي تثيره الريح في أعلى الجبل، أو زلَّت به قدمه فهو صريع يستغيث ولا يجد له مغيثًا.

لا بد إذن من إنباء الفندق بأمره، ثم من إنباء الشرطة، ثم من إرسال الرسل يلتمسونه في كل وجه، فهو لم يرتحل قاصدًا إلى الرحلة، وهذه غرفته كما تركها، فيها أثاثه كما تركه، وهم يهمُّون أن ينبئوا الفندق والشرطة كما أرادوا، وأنا أحاول أن أردهم عن ذلك، وأكاد أنبئهم بأمر القصر المسحور، ثم تصدني عن ذلك بقية من حياء فأزعم لهم أن صاحبنا غريب الأطوار، وأنه خليق أن يكون قد عاد إلى باريس كما أقبل منها لم يفكر ولم يُقدِّر، ولم يتخذ أُهْبة ولم ينبئ به أحدًا.

والخير في أن ننتظر لعله أن يعود إلينا، أو لعل أنباءه أن تبلغنا بعد حين، وأنا أُلحُّ في وصف أطواره الغريبة وأحواله المختلطة، وتصرفه في الغربة على غير نظام حتى أكاد أقنعهم بأنه رجل شاذ كل الشذوذ، لا ينبغي أن يُنتظر منه ما يُنتظر من غيره من الناس، فإذا فرغت منهم بعد جهد ولأي، أقبلت على العمل الذي أهملته فأطلت إهماله، وإذا أنا أمضي فيه، وإذا هو ينسيني توفيقًا وأنباءه ويكاد ينسيني شهرزاد، ولكني أتلقى هذا الكتاب على النحو الذي تعودت أن أتلقى عليه الكتب في هذا الصيف.

شكوى شهرزاد

«من الحق يا سيدي أنك لم تكن قاليًا ولا ساليًا حين ودعتني، فقد طالت غيبتك عني وما أرى إلا أن النسيان الآثم قد ضرب بينك وبيني أستارًا، ولولا بقية من الثقة بك لعتبت عليك، ولولا فضل من حسن الرأي فيك لصدقت وشاية سجيننا البائس حين زعم لي أن شاعرك ينسيك حتى شهرزاد. وقد كنت أظن أني لم أنعم بالخلود وحده، وإنما نعمت به وبالشباب أيضًا، ولكن شيئًا من الشك قد أخذ يعترضني ويشغل بالي منذ أخذت أحس غموضًا في بعض الأشياء، واختلاطًا لبعض الأمر، وقصورًا عن تفسير ما يقع حولي من الخطوب، فأنا لا أفهم فيم طالت غيبتك وقد كنت أظن بك الحرص على لقائي، ولا أفهم فيم انقطعت أنباؤك وقد كنت أنتظر منك الحرص على أن تتصل بينك وبيني الأسباب، وهناك أمر آخر لا أستطيع أن أفهمه ويسوءني حقًّا أن أشعر بعجزي عن فهمه وتأويله، وهو أمر هذا السجين المسكين، فقد تركته عندي حائرًا متولهًا لا يدري ماذا يريد ولا ماذا يُراد به، وقد رجعت من تشييعك شديدة الرفق به والعطف عليه أريد أن أواسيه أو أُسْليه أو أتوجع له، كما يقول الشاعر القديم، ولكني لم أكد آخذ معه في الحديث حتى أقبل الأسود ينبئني بأن ثلاثة نفر غلاظ شداد قد أقبلوا يطلبونه وهم يريدونه على أن يتبعهم، فإذا سمع ذلك ضاق به أشد الضيق، وامتنع عليه أشد الامتناع، وجثا بين يديَّ خائفًا وجلًا، وعائذًا يسألني أن أجيره، ويتوسل إليَّ في أن أحميه، وهو يزعم لي أنه قد عرف القصر المسحور أو عرف بعضه، وبَلا آلامه ومحَنه أو بَلا بعضها، وهو يؤْثر ما يعرف على ما لا يعرف، ويفضل ما بلا على ما لم يبلُ، وهو بعد هذا كله سعيد حين يشعر بأنه في كنفي وفي ظلي آمن أن ينتهي به المكروه إلى أكثر مما يطيق أو أبعد مما يحتمل.

ولست أخفي عليك أن قلبي قد رق له — وإن كان قلبي قد عاهدني على ألا يرقَّ لأحد — فأخذت أهدئ من روعه وأهون الأمر عليه، ثم طمعت في أن أخرجه من هذه المحنة

وأحميه من غوائل الزمن، وقلت للأسود: اذهب فقل لهؤلاء النفر إن شهرزاد تجير هذا الرجل وتحميه حتى من الزمان. وما سمع ذلك حتى انكبَّ على قدميَّ يقبلهما في حرارة وسعادة وفي أمل ورضًا، وأنا قد دبرت أمري تدبيرًا وأحكمته الإحكام كله، وأزمعت أن أُدخل هذا الأسير في ذلك البهو الحرام من القصر؛ ذلك البهو الذي لا يدخله ولا يخلص إليه أحد غيري، ولا يستطيع الزمان أن يتجاوز ما يلقى على بابه من الأستار، وإني لأدير الأمر في نفسي وآمر أسيري بالنهوض فينهض مشرقًا مغتبطًا وأنا مطمئنة آمنة أن يدخل هؤلاء النفر عليَّ قبل أن أُمضي ما شرعت فيه، فما استطاع أحد قط أن يدخل على شهرزاد دون أن تأذن له في الدخول، ولكن وا أسفاه … وا حسرتاه … وا لوعتاه، هذه النافذة تُفتح ولست أدري كيف فُتحت ولا من فتحها، وهذا الفتى يُنتزع من بين يديَّ ويُعلَّق في الهواء تعليقًا ويُدفع فيه دفعًا بطيئًا، وهو مُولَّه مُدلَّه قد فقد صوابه وغاب عنه رشده وهو يرسل إليَّ نظرات فيها التوسل والتضرع والاستعطاف، وأنا واجمة أول الأمر، ثم غاضبة لهذا الحرم الذي اعتُدي عليه، ثم ثائرة لهذا الجوار الذي استبيح، وأنا أسعى إلى الأسير أريد أن أستنقذه من هذه الأيدي الخفية التي تعلقه وتسعى به في الهواء، ولكني لا أكاد أبلغه حتى يُدفع دفعة عنيفة وإذا هو قد خرج من النافذة ومضى في الجو كأنه السهم. هنالك رجعت كئيبًا كاسفة البال تكاد تنحلُّ قواي، لولا أن قواي لا تعرف الانحلال، فأويت إلى مجلسي أو إلى مضجعي الذي تعودت أن تراني مستلقية عليه، وجعلت أفكر في هذا الأمر الذي أعرف أوله ولا أقدِّر آخره، وأنت تعلم أن قد كانت بيننا وبين الزمان في العهود القديمة جدًّا حرب ضَروس كاد يمحقنا فيها محقًا لولا أننا انتصرنا عليه بالحيلة، واضطررناه أن يمضي بينه وبيننا صلحًا قِوامه أن له منا المسالمة ولنا منه الخلود، فالزمان كما تعرف يأكل أبناءه جميعًا، وقد كان يريد أن يأكلنا فيمن أكل، ولكنا أفلتنا من شباكه وأكرهناه على أن يضمن لنا البقاء ونضمن له السلم. أفتُراه قد ألغى ما بينه وما بيننا من صلح، ونقض ما أعطى على نفسه من عهد؟! أفتُرانا مضطرين إلى أن نعيد الحرب بيننا وبينه جَذَعة، وأن ندكَّ الأرض والسماء دكًّا، فإما انتصر علينا فأكَلَنا فيمن يأكل، وإما انتصرنا عليه فأثقلناه بالقيود والأغلال؟! أفتُراه اتخذ هذه القضية التي لجأنا إليه فيها عن رأيك ومشورتك إلى إفساد الأمر بينه وبيننا، وردِّ الحياة كما كانت قبل أن يعرف القانون والنظام؟ أم ماذا؟ ما هذا السجن الاحتياطي الذي يفرضه على رجل مسكين من الناس ليس له حول ولا طَول بإزاء سلطان الزمان الذي لا حد له؟ مم يريد أن يحتاط ولمن يريد أن يحتاط؟ أفتُراني في حاجة إلى أن أثير إخوتي جميعًا من قصورهم حيث يَنعَمون

كما كنت أَنعَم بالراحة الخالدة والهدوء المتصل لنستأنف بين الزمان وبيننا صراعًا كنا نظن أنه مضى إلى حيث لا يعود؟ لا تغضب يا سيدي ولا يثقلْ عليك قولي، لقد أحسست شيئًا من الندم على هذه الفرصة التي أتاحت لي الاتصال بك وبصاحبك، فما عرفت أننا نجني من لقاء الناس أو الاتصال بهم خيرًا. وإني لأخشى أن يكون لقاؤنا هذا الصيف نذيرًا بشرٍّ لا نقدِّر عواقبه ولا يقدِّر الزمان نفسه عواقبه. أسرع إليَّ وأشِر عليَّ فقد اختلط الأمر أمامي أشد الاختلاط، وويل للخالدين حين يدبرون أمرهم من الهالكين، ولكن لا بد مما ليس منه بد، لقد بُدئت القصة فيجب أن تنتهي. ماذا كتبت إليك؟ أخشى أن أكون قد آذيتك وتحدثت إليك بما لا تحب، ومع ذلك فما أردت بك شرًّا ولا قصدت إلى ما تكره، ولكنك تعلم من أمرنا غير قليل؛ فقد ألمتَ بسيرتنا في الزمان الأول، وعرفت ماذا بلونا من الناس وماذا بلا الناس منا. وما أيسر العلم بذلك، لك ولغيرك، لو تقرءون ما تسمونه الأساطير!

معذرة إليك يا سيدي، أسرع إليَّ وأشِر عليَّ، فما أرى إلا أننا قد استقبلنا عهدًا جديدًا سنستأنف فيه حياتنا الأولى فنتصل بالناس ويتصل الناس بنا، فلتُعِن الأقدار كلًّا على كلٍّ كما قال الخطيب العربي القديم. إلى أن أتلقاك أو أتلقى ردك عليَّ، أرجو أن تقبل يا سيدي تحية المحزونة المشوقة إليك.»

شهرزاد

مواساة شهرزاد

«**سيدتي**

بعض هذا الفزع والجزع، وبعض هذا اليأس والقنوط، فقد روعني كتابك حقًّا وأذهلني عما كنت أضطرب فيه من شئون الحياة. ولئن كنتِ عاتبة عليَّ يا سيدتي لأني قد غبت عنك فأطلت الغيبة، فإني عاتب عليك لأنك قد روعتني فأسرفت في ترويعي دون أن يكون في الأمر ما يدعو إلى بعض هذا الاضطراب، فضلًا عن كل هذا الاضطراب تنكرين غيبتي الطويلة، فقد آمنت لي يا سيدتي بأن لأهلي عليَّ حقًّا وبأن لعملي عليَّ حقًّا، أفتمنحين باليمين وتستردِّين بالشمال؟ ولئن طالت غيبتي عنك يا سيدتي فما طالت عن رغبة ولا عن رضًا، ولكنا نتشبه بك وبأترابك الخالدين فنرى أن لقوانين الحق والواجب حرمة يجب أن تُرعى، ونكره لأنفسنا أن نتجاوز حدود هذه القوانين أو أن نخالف عن أمرها، ولقد زعمت لصديقنا الأسير البائس أن ملوك الناس وأصحاب السلطان أقدر منك على تغيير ما يشرعون من قوانين، بل على انتهاك ما لهذه القوانين من حرمات، وأنك على خلودك وسلطانك الذي لا حد له عاجزة عن تغيير ما شرعت لنفسك وللقصر من قانون، فنحن يا سيدتي نحب هذه الرعاية للقانون المشروع، ونكره الخروج عليه، ونضيق أشد الضيق بجور الجائرين منا وتجاوزهم للحدود، ونرى أن نتشبه بكم ما استطعنا وأن نرى للحياة حقها؛ فنَفي حين يجب الوفاء، ونخلص حين يجب الإخلاص، ونعمل حين يجب العمل، لا نؤْثر أنفسنا بالراحة ولا باللذة ولا بلقاء الأحباء إلا حين تبيح لنا قوانين الحياة والواجب هذه الراحة وهذه اللذة وهذه النعمة بلقاء الأحباء، أفتنكرين عليَّ يا سيدتي ما

تعرفين لنفسك وما تحبين أن نحمد لك من السيرة والخصال؟! إني لأعلم أنكم معشر الخالدين تتهموننا نحن معشر الهالكين بكثير من الغرور والكبرياء، ترون أننا نتجاوز حدودنا ونخرج عن أطوارنا حين نتأثَّركم ونسير سيرتكم، ونحاول أن نرعى القوانين كما ترعونها، وكثرة الناس من حولنا يرون فينا رأيكم هذا، يتهموننا نحن العقليين بالفلسفة والشذوذ، والفلسفة والشذوذ عندهم يؤديان ما تؤدونه أنتم حين تذكرون الغرور والكبرياء، فنحن حائرون يا سيدتي؛ نتأثَّركم فتغضبون علينا وتسخطون منا لأننا نطمع في غير مطمع، ونتأثركم فينقم الناس منا ويضيقون بنا لأنا نخرج عما يحبون ويألفون، ولو أننا أعرضنا عن تقليدكم ومضينا مع الدهماء فتبعنا الهوى وأطعنا الغريزة، وخرجنا كما يخرجون على قوانين الحياة والواجب لغضبتم علينا ولأنكرتمونا ولألحقتمونا بالعامة، وصببتم علينا مثل ما تصبون عليهم من المقت والازدراء. هل لك يا سيدتي في أن تنبِّينا نحن المفكرين البائسين كيف نصنع لإرضائكم فإنا قد يئسنا من إرضاء الناس؟ أفترين أننا سنيأس من إرضائكم أيضًا وسننتهي إلى ما انتهى إليه جماعة من الأفذاذ النادرين، فنرى أن العقل خليق أن يستغني بنفسه وأن يتمرد عليكم وعلى الناس جميعًا، وألا يحفل إلا بأن يرضى هو، وما أقل ما يرضى! لقد طالت غيبتي عنك يا سيدتي وما أحببت ذلك، ولو طاوعت نفسي لرغبت إليك في أن تخطفيني كما خطفت أسيرك البائس، وفي أن تمسكيني عندك وترصدي لي العيون والأحراس حتى لا أتجاوز بابًا من أبواب قصرك المسحور، ولكن ماذا أصنع ولأهلي عليَّ حقوق، ولعملي عليَّ حقوق، وللذين أعرفهم والذين لا أعرفهم من الناس عليَّ حقوق. إنما حظي من لذة القرب منك والاتصال بك حظ مقدور لم يُتح لي إلا بين حين وحين، حين يأذن لي القانون الذي أخذت نفسي به أن أنعم بهذه اللذة وأستمتع بهذه الحياة الحلوة. فأشفقي عليَّ يا سيدتي من هذا الحرمان، وارحميني من هذا القصور، ولا تتهميني بالإهمال والتقصير، ولا تسمعي فيَّ وشاية مهما يكن مصدرها وإن كان هو أسيرك العزيز عليك وعليَّ معًا.

على أني أعود يا سيدتي فأستأذنك في الرثاء لك والإشفاق عليك، وأعترف بأن الأمور قد دارت دورتها وتكشَّفت عما لم أكن أنتظره ولا أرجوه، فكيف أصدق أن شهرزاد الخالدة التي لا حد لقوتها وسلطانها تحتاج إلى أن يرثي

لها ويشفق لها ضعيف هالك مثلي. يظهر أن نظام الكون قد تغير أو أنه آخذ في التغير. ماذا تشكين في قوتك وتنكرين سلطانك وذكاءك، وأنت التي تمنحين أمثالنا القوة والسلطان والذكاء؟! ولكن ماذا أنكر وقد انتهينا إلى عهد لا يُنكَر فيه شيء ولا يُعرف فيه شيء، قد اضطرب كله؛ فالمطر ينهمر في أوقات الصحو، والصحو يشرق في أوقات المطر، وقد أصبح الصيف شتاء والشتاء صيفًا، وقد انقلبت الأوضاع واضطربت النظُم واختلط كل تقدير وتدبير، ولو أن لعقولنا بقية من الثقة بنفسها لما شككت في أن الحياة قد عادت كشأنها يوم خلق الله السموات والأرض، وفي أن ما بلغْنا إليه من رقيٍّ قد استحال إلى تراجع وانحطاط، ولكن لنتدبر أمرنا يا سيدتي، ولنستقبل ما يَعرِض لنا بشيء من الحزم والعزم ومن الأناة والتفكير. ما هذا الخوف الذي يملأ نفسك الخالدة؟ وما إشفاقك أن يكون الزمان قد عاد سيرته الأولى وأراد أن يعيد الحرب بينكم وبينه جَذَعة ليأكلكم كما يأكل أبناءه الآخرين؟ أكلُّ هذا لأنه كره أن يموت أسيرك قبل أن يأتي أجله فاستنقذه منك وضمن له حياته ليتم ما يريد الله أن يتمه في هذا الكون، فأنت يا سيدتي كنت تريدين أن تقتلي أسيرك لا أقل ولا أكثر، فهل فكرت في معنى استنقاذه من الزمان وحفظه حتى لا يصل إليه، إنما معنى هذا الموتُ، بل معنى هذا أبلغ من الموت، معناه الفناء الذي لا وجود معه ولا وجود بعده، فأي شيء نحن إذا لم يشملنا الزمان بحمايته ورعايته، وأي شيء أنتم إذا لم يشملكم الزمان بحمايته ورعايته، لقد ضمن لكم الخلود في ذلك الصلح الذي أمضيتموه، ولكنه لم يضمن لكم تجاوز حدوده ولا الخروج عن سلطانه. وهل تعرفين للزمان حدًّا وهل تعرفين لسلطانه غاية ينتهي إليها؟

معذرة يا سيدتي، لقد كنت أظن أنك أنت التي ألهمت حكيم المعرة هذا البيت العجيب:

ولو طار جبريل بقية عمره   من الدهر ما اسطاع الخروج من الدهرِ

أترين أبرع أو أروع من هذا في تصوير سلطان الدهر الذي لا ينتهي، وملكه الذي لا حدَّ له. لم يضمن الزمان يا سيدتي فراقه ولا الخروج عن سلطانه، وإنما ضمن لكم صحبته أبدًا، وجعل الفرق بينكم وبيننا أننا نحن نأكل وأنتم لا تأكلون، فقد كنت تريدين يا سيدتي أن تكرهي الزمان على أن

يأكل توفيقًا قبل أن يتم نضجه، أفتغضبين لأنه أبى أن يأكله نيئًا؟ وما رأيك فيمن يريد أن يُكرهك على أن تأكلي من الألوان ما لا تحبين ولا تسيغين؟ إنما نحن يا سيدتي ملك الزمن ينشئنا وينمينا وينضجنا، حتى إذا بلغنا حاجته ورضاه أكلنا كما يشاء هو لا كما نشاء ولا كما تشائين.

وغريب يا سيدتي ألا تفهمي مم يحتاط الزمن ولمن يحتاط بحبس هذا السجين، فإنه يحتاط للسجين نفسه أولًا، فمن يدري لو خُلي بينه وبين الحرية لعله أن يكتب كتابًا آخر يسوء به هذه الأشباح الساخطة الصاخبة، فيزيدها غيظًا على غيظ وهياجًا إلى هياج. ويحتاط لهذه الأشباح التي لجأت إليه وقبلت حكمه، فمن حقها عليه أن يحميها من كتاب جديد، ويحتاط لك أنت من أن يعود الأسير إلى ما يرى خصومه أنه إثم، فيعود هؤلاء الخصوم إلى إثارة الضجيج والعجيج من حولك، وإلى الإلحاح عليك في تسليمه، ومن يدري لعلهم يخرجون عن أطوارهم فيحدثوا في قصرك حدثًا، أو يبطشوا بالأسير بطشًا يسوءك فيه ويحزنك عليه. لا تنكري إذن على الزمان احتياطه فهو حكيم فيما يأتي إن كنت قد رأيته يأتي شيئًا، وهو حكيم فيما يقول إن كنت قد سمعته يقول شيئًا. إنما الخير يا سيدتي أن تطمئني لقول الزمان وفعله، وأن تصلحي ما بينك وبينه من الأمر، وأن تستأذنيه في لقاء أسيرك من قريب أو البر به من بعيد، فذلك أنفع وأجدى من ثورة لا تغني عنك ولا عنه شيئًا. إنما الخير يا سيدتي في أن تتعجلي نظر الزمان في هذه القضية حتى لا يطول سجن الأسير، وحتى تنتهي هذه القضية كما بدأت فتستريحي ونستريح ويستريح الزمان. وما أرى أنه سيجيبك إلى السرعة في إنجاز هذه القضية، فإن حياة الناس من حولنا مضطربة كما ترين، وأخشى ألا يفرغ الزمان لقضية صديقنا المسكين قبل أن يفرغ من هذه القضايا الخطيرة الكبرى التي تفسد ما بين الشعوب.

أما بعد، فإني ما كرهت يا سيدتي وما ينبغي لي أن أكره شيئًا تقولينه لي أو تسوقينه إليَّ، فكل شيء يأتي منك عذب لذيذ، تطمئن إليه النفس وينعم به القلب، فارضي فالنعيم في رضاك، واغضبي فإن الألم في سبيلك لذة، ولا تحسبي أن ندمك على الاتصال بي وبصاحبي يسوءني، فستعلمين إن لم تكوني علمت من قبل أن الخلود وحده لا يكفي لسعادة الخالدين، وإنما قيمة الخلود أن

يتصل من حين إلى حين بالفناء وأصحاب الفناء، ليقدر نفسه ويكبرها ويرتفع عن السأم والملل، وعن اليأس والقنوط، وإلى أن تنعمي عليَّ سيدتي بساعة حلوة في حضرتك، أرجو أن تتفضلي فتمنحيني يدك الكريمة الرشيقة لأضع عليها قبلة كلها وفاء وحب وإخلاص.»

في الحبس الاحتياطي

أمر «الزمن» بتوفيق الحكيم فحُبس في برج ساعة كبيرة في رأس كنيسة «كومباو» على ارتفاع ألف متر عن سطح البحر، ذلك أن «الزمن» دائمًا يقول: «إذا كانت المساجد والكنائس هي بيوت الله، فإن أبراج الساعات هي بيوتي.» ولا يعرف غير رب البرج كم من الأيام لبث المتهم في ذلك الحبس، لا يسمع غير دقات «النصف» و«الربع»، وصرير «العقارب» التي تأكل حياتنا لحظة لحظة، و«التروس» التي تطحن وجودنا ذرة ذرة. وبينا المتهم قد أطرق يأسًا وذلًّا، لا يفكر فيما كان من أمره ولا فيما سيكون، كأنما عقله قد كلَّ وذهنه قد أقفر، وكأنما يأسه قد أغراه بأن يقذف نفسه في «طاحونة الزمن» لتحيله العقارب والتروس إلى دقيق يتناثر في الهواء ويعيش سابحًا في الفضاء، إذا «الريح» تلقي إليه برسالة مختومة من كُوة في قمة البرج، ففضَّ الرسالة بيد كَسلى ونفس ميتة وقرأ:

«**عزيزي**

يشق عليَّ أن تُخطف مني سريعًا وأن يذهب عني الصفاء الذي أشرق به وجهك في اليوم الأخير، ولكن «السارق مسروق»، ولقد سرقتك فسرقت مني، إن «القاضي» لم يأذن لي في دخول الحبس كي أراك، غير أنه أذن لي في الكتابة إليك، ولطف بي فأمر أن تُحمل إليك رسالتي على أجنحة «الريح»، فإذا طالعتها فهل لي أن أطمع في كلمة منك تقيم بها أودي حتى تعود إليَّ؟»

شهرزاد

وقعت الرسالة من يد السجين، وقد تغير وجهه، لكنه التقطها فقرأها من جديد وقرأها وقرأها حتى كاد يقطعها قراءة. ثم صاح: «هذه المرة قد أصابت مني مقتلًا!»

«أين القلم والقرطاس؟» فتساقطت عليه من الكوة أقلام وقراطيس ... فجلس من فوره وكتب:

«سيدتي»، ولكن هذا النداء لم يَرُقه، فمزق الورقة وتناول ورقة أخرى وكتب:

«عزيزتي»، غير أن هذا اللفظ أيضًا فيه فتور، وهو يريد لفظًا كالسياط الساخنة. فمزق القرطاس وتناول غيره وكتب:

«معبودتي

إن حبك خالد كالوجود، ولن يستطيع الزمن أن يفرق بيننا أو يحطم حبنا. إن الحب يحلق فوق الزمن، كما يحلق الفراش فوق الأزهار. إن الحب قد قتل الزمن ...»

وما بلغ السجين هذه العبارة حتى سمع ضحكًا عريضًا وقهقهة خشنة كلها سخرية، رن صداها في المكان وارتجت لها عقارب الساعة. ثم خفت الضحك وتلاه صوت أجش عميق النبرات يقول هازئًا: من هذا الأبله الذي يزعم أني قُتلت؟

ولم يسمع السجين غير ذلك، فقد خيَّم السكون، وكأن شيئًا لم يكن في هذا المكان. على أن هذا الصوت الهازئ لم يبرح له صدًى يرن في رأس السجين ويلعب بأفكاره حتى قلبها رأسًا على عقب، فرفع القرطاس ومرَّ عليه ببصره وابتسم، ثم مزقه وتناول قرطاسًا آخر وكتب:

سيدتي

أما أني خُطفت منك سريعًا وسُرقت وشيكًا وأنت الخاطفة السارقة — ولا فخر — فهذا ما يحدث دائمًا، فإن السارق كما قلت مسروق، وما جاءت به الرياح ذهبت به «الزوابع»! ويظهر أن هذا قانون الحياة كما هو قانون القصر! وحياتنا السريعة إن هي إلا خطف في خطف، ولقد خطفتني من أصحابي فخطفني منك الزمن، ولا أدهش إذا خطفني من الزمن من هو أقوى منه، أما أن كلمة مني تقيم أودك فهو أمر يدهشني، ولا أغبطك عليه، فيا لضيعة إنسان تقيم أوده كلمة مني! ... وأما رغبتك في زيارتي بالحبس فهو رفق بي ولطف لا أحسبني أنساه لك. وبعد، فإني أخشى أن تكون كلمتي أغلظ مما كنت تتوقعين، ويُخيل إلى ظني السيئ بالمرأة أن كل رسالة تخلو من الإشارة إلى «الحب» هي عند المرأة رسالة غليظة. وأؤكد لك يا سيدتي أني ما كنت أضنُّ على مثلك بهذه

الإشارة لو لم يكن «الحب» هذا الصبي الرقيق الضعيف لا يبدأ الكلام أول ما يبدأ إلا بتحدي «الزمن»؛ ذلك الجبار الطاغية المخيف، ولا يفتح فمه الصغير إلا بأغانٍ وأناشيد ينظمها من ألفاظ براقة متلألئة يرى الزمن أنها له وحده، وأنها ما وُجدت إلا ليرصع بها تاجه الهائل ... هذه الألفاظ هي «الخلود والأبد والبقاء» يلعب بها «الحب» الجميل لعب الأطفال بكرات البلور ذات الألوان تحت أقدام «الزمن» الساخط الساخر، إلى أن يضيق «الزمن» به وبعبثه ذرعًا فينفخ نفخة صغيرة فإذا «الحب» قد طار بأناشيده وألفاظه ولعبه وأغانيه! ومع ذلك يا سيدتي فأنت تعلمين أن أمري الآن بين يدَي «الزمن»، وأن «قضيتي» الساعة موضع نظره، فهل أستطيع اليوم أن أُغضب هذا «القاضي» العظيم بالانصراف إلى ذلك الطفل اللعوب؟!

وأخيرًا يا سيدتي أرجو أن تتقبلي خالص شكري على جميل عنايتك، وأن تأذني لي في أن أضع عند قدميك:

توفيق الحكيم

دارت «العقارب» دورتها، واستقبلتها أجراس البرج بالضجيج، ورجعت «الريح» مسرعة تحمل إلى السجين الجواب:

«أيها الأسير العزيز

فهمت كل شيء، ما أشد خوفك وخوف صديقك من «الزمن»!

لقد وجَّه طه حسين إليَّ كذلك كتابًا طويلًا عريضًا تترنح سطوره فرَقًا من مخاصمة «الزمن»؛ ذلك الغول الجائع الذي يأكل الناس في غير ميعاد غداء أو عشاء.

ولقد تبينت من قول صديقنا طه أنه لا يريد لك ولا لنفسه أن تؤكلا نيئين قبل أن يتم نضجكما، وقبل أن تفرغا كل ما في جعبتيكما من كتب ومقالات، فراح يتهمني في صراحته الجريئة أني أريد الموت العاجل لمن أسعى إلى استنقاذه من يد الزمن. زعم غريب! فأنا لا أعرف الموت ما هو؛ لأني كما تعلم أعيش دائمًا، وكنت أريد لكما حياة صافية مثل حياتي في ذلك القصر الجميل الذي لا يموت الصيف فيه أبدًا، ولكن ... لتكن مشيئة صديقك طه،

وليمضِ في إشفاقه على نفسه وعليك وعلى الكون المسكين، الذي لا محالة صائر إلى الفناء بعدكما، سائر إلى حيث تنخر فيه عوامل الفساد إن غادرتماه قبل أن تريقا عليه كل ما عندكما من محابر، وتنثرا عليه كل ما في رأسيكما من نثر! واهًا لكم أيها الأدباء!

لقد طال بي العهد فنسيت أن رءوسكم الآدمية العظيمة يوم تُقدم للدود لن يجد فيها غير كلمات مرصوصة، لا تسمن ولا تغني من جوع! إني في حقيقة الأمر أرثي لكم معشر الآدميين؛ ما أشقَّ جهدكم طول الحياة إرضاءً «للزمن»، وما أشد حرصكم على ألا يلقي بكم في أعماق بحاره الظلماء، التي لا يعرف هو نفسه مقرها ولا غورها؛ بحار النسيان! ما حرصكم هذا أيها الحمقى؟! إنكم يوم تذهبون لن يعنيكم من أمر «الزمن» شيء، وسوف تنقلبون أشياء لا تعرف الدنيا ولا تذكرها، ولا تحفل بشعرها ونثرها ومجدها. إنكم يوم تتجردون من هذا الثوب الآدمي، تتجردون كذلك من تلك الأوهام والأحلام التي تدفعكم إلى تقدير «الزمن»، فالزمن نفسه ما هو إلا الملك المتوج على عرش تلك الأوهام والأحلام، فإذا ذهبت من أدمغتكم ذهب معها، فهو منسوج من مادتها، وهو أضعف وأوهى مما تتصورون، فهو لا شيء غير فنائكم الآدمي تجسم شبحًا هائلًا أحاط بكم من كل جانب. بل إن مخيلتكم الفانية هي التي أفرزت هذا السم الذي تسمونه «الزمن»، ثم طَلَت به حياتكم وسجنتها فيه، فشأنكم شأن «دودة القز» تفرز من لعابها تلك المادة الحريرية التي ما تزال تلتف حولها وتحيط بها حتى تحبسها وتخنقها وتميتها.

فالوجود نفسه يسخر من تلك الكلمة ولا يعرف إلا أنها حماقة من حماقات البشر أو ضرورة من ضرورات حياتهم الزائلة. بل إن الوجود لا يعرف ولا ينبغي له أن يعرف هذا الكائن الموهوم «الزمن»، ولقد استعان صاحبك ببيت من شعر المعري، بديع الخيال حقًّا:

ولو طار جبريل بقية عمره … من الدهر ما اسطاع الخروج من الدهر!

لست أذكر أن كنت أنا التي أوحت إليه به في ساعة من ساعات لهوي وعبثي، إنما الذي يدهشني الآن هو هذا السؤال: هل لجبريل عمر؟ وهل هو يتحرك بجناحيه في الزمان والمكان؟ إذن فهو بشر. إلا إذا قصد بالدهر الله

والوجود، فإن الحركة في الزمان والمكان ليست من صفات الخالدين، تلك كلمات ابتدعها البشر لأنفسهم ولوصف حياتهم! إنِّي أعجب دائمًا لأولئك الذين يريدون كشف أسرار الله بكلمات من قاموسهم اللغوي! أليس من المضحك أن تصطنع أيديكم الصغيرة ذلك المسبار القصير لتسبر به غور الكون؟!

أما «الحب» الذي تهزأ به، فهو حقًّا ضعيف رقيق كالزهرة التي لا تعيش أكثر من يوم، ولكنه جميل والجمال لا علاقة له بالزمن؛ فإن اللحظة منه تكفي لإضاءة حياة كاملة. إن لم تصدقني فأصغِ إلى همسات فلاسفتك العظام وقد أشرفوا على الحفرة:

«الكل باطل وقبض الريح ... وا حسرتاه! ولا شيء في حياتنا الآدمية يستحق منا الآن تحية وداع، غير لحظة حب ظفرنا بها.»

وبعد، فإني أخشى أن أكون قد قسوت عليك. وأحب أن تعتقد أني على الرغم من رسالتك لم أزل لك صديقة وفية. وإني أنتظر نافدة الصبر ساعة الحكم ببراءتك. وإنك لن تجد مني في كل حين سوى عطف خالص لا ينتظر أجرًا، فنحن الخالدين قد اعتدنا أن نعطي ولا نأخذ. على أنك إذا تفضلت فقبلت مني، راضي النفس صادق الإيمان، ما أبعث إليك مع هذا الكتاب من حب هادئ، لا يرجو شيئًا ولا «يتحدى أحدًا»، ولا يعرف الأغاني والألفاظ والأناشيد، فإنك تعيد ابتسامة الصفاء إلى ثغر المخلصة لك.»

شهرزاد

لم يقرأ المتهم هذه الرسالة مرة ثانية، ولم يُضع وقتًا، وتناول من ساعته القلم وكتب:

سيدتي العزيزة

أبادر فأعترف لك أن كلامك عن «الزمن» قد أدهشني حقيقة. كلَّا، لست أصدق أنك تؤمنين بما تقولين!

إنما هي ثورة أهاجها في نفسك كتابي، الذي آثرت فيه الانضواء تحت لواء «الزمن» على السكون تحت جناح «الحب»، فرأيت أن تنتصري «الطفل» بأن تحملي على «الجبار»، على أني أراك أنت أيضًا تنتضين سلاح «الكلمات» حاسبة أنك بها تستطيعين أن تقتلي وأن تمحي من الوجود هذا الكائن الذي

نحيا جميعًا في أحشائه. أتأذنين لي في أن أسألك: أين تعيشين؟ ألا تحسين بأنك تعيشين في الزمن؟ هذا الخلود الذي تنعمين فيه؛ ما هو؟ وما معناه؟ أليس هو الحياة المتصلة في «الزمن»؟! إن الزمن ليس وهمًا، إنما هو إناء عظيم لا قاع له يسبح فيه الأحياء والأموات، الخالدون والهالكون، فإذا أخرجت منه، فأين تكونين وإلى من تصيرين؟ العدم؟ إن كان لهذه الكلمة أيضًا معنًى أو وجود لكانت قليلة! فإن من خرج من قصر «الزمن» نُزع عنه رداء «الخلود»؛ إذ لا «خلود» إلا بالقياس إلى «الزمن»! فالزمن كما ترين يفرض سلطانه حتى على الخالدين، فهو الذي يخلع عليهم أبراد «الخلود» الموشاة داخل مملكته التي لا مبدأ لها ولا نهاية، ولا يستطيع جبريل أن يخرج عن حدودها لو طار بقية عمره في أرجائها. نعم، لقد صدق المعري وطه، فإن «الدهر» أو «الزمن» يسع في محيطه جبريل والكون والوجود، فما دام هؤلاء جميعًا قد دخلوا «مجرة» العقل الآدمي فقد خضعوا معه على الرغم منهم ومنه لإمرة «الزمن»، فنحن بغير «الزمن» لا نعي شيئًا ولا تصلح عقولنا لشيء، فإن إبرة العقل متصلة بـ «مغناطيس» الزمن. هكذا خُلقنا نحن البشر. وأرجو منك ألا تقولي إن هنالك وجودًا مطلقًا خارج «منطقة نفوذ» الزمن والعقل الآدمي، فإني أجيبك من فوري: إن ما يخرج عن منطقة عقلنا وزمننا لا وجود له عندنا؛ لأننا لا نستطيع أن نتصوره، فأنت موجودة عندي لأنك قد دخلت منطقة تصوري، وما دمت داخل تصوري فإني لا أملك أن أدفع عنك سيطرة «الزمن» الذي يبسط حكمه على رأسي وعلى كل من دخل رأسي من خالدين وهالكين. أرأيت يا سيدتي قوة «الزمن» وجبروته؟ أما قولك إن «الزمن» وهم أفرزته رءوسنا الآدمية، فهو كلام يصدق على كل ما تقع عليه حواسنا من موجودات مادية أو معنوية، فليس هناك في الواقع حقيقة ولا وهم، إنما كل شيء وليد رءوسنا وإفراز أدمغتنا، فما أنت يا سيدتي العزيزة، وما الجبال التي تحيط بي، وما الكتب التي أقرؤها، وما الأصدقاء الذين أحبهم، وما أهلي، وما عملي، وما مالي إلا إفرازات تخرج من رأسي، فأنت و«الزمن» في هذا سيان، لا أستطيع أن أسمي أحدكما وهمًا والآخر حقيقة.

أما دفاعك عن «الحب» فهو جميل كـ «الحب». ولست أنكر مطلقًا أنه أعجبني وأثر في نفسي. ما أصدقك إذ تقولين إن لا شيء يستحق منا تحية وداع

على الأرض مثل لحظة حب ظفرنا بها! نعم ... ولكن ... تلك اللحظة، أين هي؟ أنستطيع أن نظفر بها في كل حين؟

وبعد، فأرجو أن تغفري لي هذه المرة أيضًا جفاء هذا الكتاب، فإني إنما أردت أن أعيد إليك الثقة في مولانا «الزمن»، فما دام هو الذي ينظم حياتنا فهو ولا ريب الذي يقيم العدل ويرد الحق إلى ذويه.

واقبلي يا سيدتي المحبوبة خالص شكري على عطفك الذي تجودين به دائمًا عليَّ. ولو كنت أرى قلبي جديرًا بك لبعثته إليك رسولًا أمينًا يقرئك السلام من

أسيرك المخلص توفيق

المحاكمة

جاء يوم المحاكمة. وعقدت الجلسة في رأس «الجبل الأبيض» بالقرب من «شامونكس». واعتلى «القاضي» القمة في هيبة ووقار، وهو كائن طويل مديد، لا ظهر له، ولا يبدو عليه عمر، له وجهان؛ أحدهما أسود والثاني أبيض. وقد اتخذ له من «قوس قزح» وسامًا يزين صدره الذي كساه الجليد. وعندئذ قصف «الرعد»، وهو حاجب الجلسة: محكمة!

فنهض الحاضرون رهبة ورعبًا قبل أن ينهضوا إجلالًا، وسقط ضعاف القلوب منهم مغشيًّا عليهم، فلم يلتفت إليهم أحد، حتى أفاقوا من تلقاء أنفسهم صفر الوجوه فوجدوا الناس قد جلسوا، فجلسوا وكأن على رءوسهم طير الرخ!

وعندئذ هبط من القمة صوت هادئ عميق: فُتحت الجلسة!

وأشار «القاضي» إلى «الزوابع» فصفرت ومضت، ثم عادت حاملة «المتهم»، وألقت به على الجليد ثم استأخرت عنه. وعندئذ هبط الصوت العميق: أيها المتهم، قف!

ولكن المتهم لم يسمع شيئًا، فلقد كانت أسنانه تصطك، وفرائصه ترتعد، لا من الخوف وحده، ولكن من البرد، فهو الساعة على ارتفاع خمسة آلاف متر عن سطح البحر أو يزيد.

ولما رأى «القاضي» أن المتهم لم يُبد حراكًا، أشار إلى حاجب الجلسة، فتقدم «الرعد» ودنا من أذن «المتهم» وقصف: قف، أيها المتهم!

وكأن لطمة قد أصابت أم رأس «المتهم» فانبطح على الأرض لا يعي، ثم ثاب إلى رشده بعد قليل وهو لا يذكر من أمره شيئًا. وسمع همسًا خلفه فالتفت، فإذا شهرزاد مع حاشيتها وإلى جانبها طه حسين جالسين في الصف الأول من صفوف المشاهدين وهم يتتبعون ما يقع في جد وقلق واهتمام. وما علموا أن توفيقًا أحس بهم حتى همسوا إليه مشجعين: قف ولا تخف! ذاك حاجب المحكمة!

– حاجب ... المحكمة!

همس المتهم بذلك كالمخاطب لنفسه من بين أسنان ما زالت تصطك على الرغم منه: «إذا كان هذا حاجبها فهل يُرجى منها خير؟!» ثم تحامل على نفسه ووقف مترنحًا كالسكران وصاح: أ ... أ ... أين هو القاضي؟ لا سؤال ولا جواب قبل أن تحضروا إليَّ معطفي الصوفي، سأموت من البرد قبل صدور الحكم!

فأشار «القاضي» إلى «الحاجب»، فتقدم «الرعد» إلى المتهم وقصف: أين هو معطفك؟

فانتفض المتهم انتفاضة كادت تطرحه إلى الأرض، لكنه ثبت والتفت صائحًا: النجدة يا أهل المروءة! أما من حاجب ألطف من هذا! ... أيها القاضي، إذا تركت عليَّ حاجبك هذا فإني لا أضمن حياتي إلى آخر الجلسة، فألتمس من عدالتك لا تجعل بيني وبينك حاجبًا! فإن مثلي وإن لم تكفه الإشارة فهو على كل حال لا يحتاج إلى مثل هذا الترجمان الذي يميتني ويحييني في كل لحظة!

– ولكني أنا في حاجة إلى هذا الترجمان، فإن سمعي ثقيل، لا تصل إليه أصواتكم ولا صخبكم وضجيجكم!

– وكيف تسمعني الآن أيها القاضي؟

– أمرت «الريح» أن تجلس طول الجلسة تنقل إليَّ ما يدور فيها من كلام!

– لا بأس بالريح، فهي على كل حال أرق حاشيةً وأهون خطبًا!

– فليكن ما تريد!

وأشار القاضي إلى «الرعد» أن تنحَّ الآن، فامتثل ووقف في آخر المكان ينظر ولا يتكلم. وعاد القاضي إلى المتهم قائلًا: أين معطفك فنحضره إليك؟

فسكت المتهم وأخذ يتذكر: أين معطفي؟ ذلك هو المشكل! أين تركته وأين نسيته، لقد صحبني في كل مكان، لازمني في مصر وفي السفر وفي الجبل، وحتى في الجحيم بين اللهيب ما تركته وما نسيته! واليوم وأنا في السماء عند السحاب وبين الجليد أتركه وأنساه وأصعد بدونه!

فتهامست شهرزاد وطه مبتسمَين: حقًّا لا يحدث هذا إلا من توفيق الحكيم!

وعِيل صبر القاضي، فقال في شيء من الحدة: إنا لم نجتمع في هذا المكان لننظر في قضية معطفك! ولا إخالك تعتقد أني عاطل لا عمل لي في الوجود غير النظر في التافه من أمورك!

فأطرق المتهم وأُرتِج عليه، فنهضت شهرزاد قائلة: فليأذن سيدي القاضي في أن أدل «الزوابع» على مكان معطفه، إنه في حمام قصري!

– في حمام قصرك؟ وماذا يصنع في حمام قصرك! آه ... نعم. تذكرت!

همس بذلك المتهم ... وطارت «الزوابع» إذ سمعت قول شهرزاد. وعادت في لمح البصر بمعطف توفيق وألقته على منكبيه. وما شعر توفيق بثقل معطفه حتى اطمأن وقال: وأين عصاي؟

فكظم القاضي ما به وقال: انتهينا من مسألة المعطف وجاء الآن دور العصا ... ماذا يفعل بالعصا في حضرتي ... ولا هي تقي بردًا ولا حرًّا، ولا تدفع شرًّا ولا ضرًّا؟!

– إنِّي لا أشعر بأني أنا حقيقة توفيق الحكيم إلا بمعطفي وعصاي!

– هاتوا له ما يريد. إن هذا الإنسان قد أضاع «مني» أكثر مما ينبغي في غير طائل!

ولم يمضِ قليل حتى كان المتهم ماثلًا بمعطفه وعصاه بين يدَي القضاء مستعدًّا لكلمته وأمره ... وتنفس القاضي الصُّعَداء: أخيرًا! ألك حوائج أخرى أم ننظر في الموضوع؟

– ننظر في الموضوع.

– حمدًا وشكرًا! تقدم أيها المتهم! ما اسمك؟

– اسمي توفيق الحكيم.

– عمرك؟

– أيها الزمن ألا تعرف عمري؟!

– معذرة! صدقت! إنِّي أعرف عمرك. ومن ذا غيري ينبغي له على الأقل أن يعرف الأعمار؟! صناعتك؟

– صناعتي؟ ... أيهما؟

– أديب وكاتب روائي يختلق الحوادث ويبتدع الأشخاص ... أليس كذلك؟

– عفوًا، سيدي القاضي، ليست هذه صناعتي الأصلية.

– لست أعرف لك غيرها. تلك هي التي ورد ذكرها أمامي في الأوراق؛ أديب روائي يختلق الحوادث ويزوِّر الأشخاص ...

– يزوِّر؟!

– أليس الأمر كذلك؟ أجب بنعم أو بلا!

وقع المتهم في حيرة ... وجعل يفكر هُنيهة، ثم قال وكأنه يخاطب نفسه: نعم، إنِّي كذلك، ومع ذلك، فإني لست كذلك.

– ما هذا الجواب المعقد؟! إنِّي أطلب إليك جوابًا واضحًا بسيطًا في لفظ واحد. أتختلق وتزيف؟ تلك هي التهمة التي يرميك بها المدعون.

– أنا أختلق وأزيف؟! وأنا أعرف القانون، وكنت رجلًا من رجال القانون! كلا يا سيدي القاضي!

– أنكر المتهم التهمة. اجلس أيها المتهم، وأصغِ إلى أقوال المدعين.

أحضروا الشاهد الأول!

وعندئذ استوى «الحاجب» واقفًا، ونشر ورقة في يده وقصف: الشاهد الأول؛ شهريار!

فصفرت «الزوابع» وأقبلت تلقي بشهريار أمام القاضي، وتفرَّس القاضي في الشاهد، ثم قال: شهريار، عمرك؟ كلَّا، هذا من شأني ... صناعتك؟

– ملك.

– في أي مملكة؟

– في أي مملكة! لم يسألني أحد قبل الساعة هذا السؤال، ولم يخطر لي على بال أن أعرف اسم هذه المملكة؟ لست أدري، سلوا هذا المتهم!

فالتفت القاضي إلى المتهم، فوقف: أيسألني أنا عن اسم مملكته؟ وكيف لي أن أعرف؟ إن كل ما أعلم عن هذا المخلوق أنه ملك، ولست أدري أين مملكته، ولا أين موقعها من «خريطة» العالم.

فعاد القاضي والتفت إلى الشاهد، فاعتدل: أنا كذلك لست أعرف إلا أني ملك.

فقال القاضي في شيء من السخرية: حسبك هذا. أَقسم إنك لا تقول غير الحق.

– أُقسم.

– ما أقوالك؟

– أقوالي: أن هذا المتهم قد قذفني بالباطل، وافترى عليَّ كذبًا وزورًا واقعةً لم تكن؛ فلقد جعلني ديوثًا أدخل على شهرزاد فأجد عندها العبد فلا أقتله ولا أشرب من دمه!

فما تمالك المتهم أن وقف وصاح: كنت تريد أن أجعل منك قاتلًا سفاكًا يشرب الدماء. نعم لقد أذنبت وأجرمت إليك إذ لم أجعلك كما كنت تريد مخلوقًا سخيفًا!

وأراد الملك أن يحتج، ولكن القاضي هدَّأ من غضبه وأسرع فأمر المتهم بالجلوس والصمت إلى أن يحين وقت الدفاع فيتكلم كما يشاء، وأشار القاضي إلى «الزوابع» فأقصت شهريار وأحضرت الشاهد الثاني قمرًا، فسأله القاضي عن اسمه وصناعته ثم عن أقواله، فأجاب الوزير: أقوالي يا سيدي القاضي: أن هذا المتهم قذفني وحطَّ من قدري؛ فلقد جعلني أقتل نفسي من أجل امرأة، في الوقت الذي يخرج فيه العبد من مخدعها وينكشف لي إثمها ودنسها!

فتغير لون شهرزاد ومالت إلى أذن طه تهمس: لقد أدهشني الساعة أن يكون ذاك كلام شهريار العظيم ... الذي كان عظيمًا حقًّا في آخر أيامه! ولكن ما قال هذا الشاهد المدعو قمرًا الآن أدهى وأمرُّ! يا إلهي، ما هذه المخلوقات؟! يا له من كابوس! ... ولم يُطق المتهم سكوتًا، فنهض صائحًا: يا لخيبة أملي فيك أيها الوزير الجميل! أنت الذي عشت تعبد مثلك الأعلى النبيل، فلما ذهب عنك ذهبت، لقد انطفأت في قلبك شمس حياتك يا قمر، ففيم بقاؤك؟! ولكن هذا الشاهد ليس بقمر، إنما هو فرد من السوقة!

فضاق القاضي بالمتهم: قلت لك اجلس ولا تنبس! ... أحضروا الشاهد الثالث، فجيء بـ «الجلاد»، وبعد المقدمات المعروفة سأله القاضي عن أقواله.

– أقوالي يا مولاي القاضي: أن هذا المتهم قد نسب إليَّ زورًا أني بعت سيفي إلى صاحب الخان، وأنا رجل «موظف» أقدر واجبي، وأعلم أن هذا السيف ليس ملكي، وإنما هو «عهدة» لا يباع ولا يشرى!

وعندئذ قام المتهم صائحًا: أرجو من عدالة القاضي أن يسأل في ذلك صاحب الخان، وهو لا شك قد حضر مع الشهود!

فالتفت القاضي إلى «الزوابع»: أحضروا الشاهد الرابع!

فما مرت ثانية حتى كان «أبو ميسور» ماثلًا أمام القاضي، فسأله: أأنت صاحب الخان؟

– أجل، مولاي القاضي!

– هل تعرف هذا الجلاد؟

– كيف لا يا مولاي القاضي، وهو عميلي ومديني، وأحد المدخنين!

– أكان قد باعك شيئًا بدينٍ عليه؟

– باعني سيفه.

وعندئذ صاح المتهم فرحًا: فليحيَ العدل! ظهر الحق وزهق الباطل! ألا تستحي أيها الجلاد! ما أكذبك!

فأسكت القاضي المتهم، ثم التفت إلى أبي ميسور: وأنت ما أقوالك؟

– أقوالي وحق رأسك أيها القاضي! عجبًا! لست أرى لك رأسًا ولا ذنبًا! ومع ذلك فهذا ليس بالأمر الذي يعنيني، وما دمت أنت القاضي فإني أشكو إليك هذا المتهم، أين هو؟ لا يشرفني أن أراه، هذا المتهم يزعم زورًا أني أدخن القِنَّب حتى يغيب وعيي. هذا باطل أيها القاضي، فإني وحقِّ رأسك، كلَّا لا شأن لي برأسك، فرأسك هو لك، ولست أدري إن كان

رأس إنسان أو رأس حصان ... ولكنه رأس القاضي ... ولكن أين هو رأس القاضي، عجبًا إن للقاضي رأسين؟ رأس لا شك فيه الإدانة، ورأس فيه البراءة ... وإذا تناطح الرأسان ...

– كفي خلطًا! إنك إلى الساعة غائب الوعي تفوح منك رائحة القِنَّب! اطردوه!

– فليحيَ العدل!

– صه أيها المتهم، لا أريد هنا مظاهرات! الزم الصمت! أيها الحاجب! نادِ بقية الشهود!

فقصف «الرعد» وصفرت «الزوابع» وطارت في كل مكان، ثم عادت تعلن أن بقية الشهود، وهم «الساحر» و«زاهدة» قد هربا ولم يُعثر لهما على أثر، وأن شهرزاد و«العبد» حاضران في الجلسة بين المشاهدين. وعندئذ قامت شهرزاد وأعلنت أمام القاضي والجموع نزولها عن كل حقٍّ لها — إن كان لها حقٌّ — في مقاضاة المتهم. وقام «العبد» فتبع أثر مولاته فيما أعلنت. وكانت الشمس قد غابت، فمال وجه القاضي الأبيض عن المكان، وظهر وجهه الأسود، يملؤه «كَلَف» دقيق من نور متناثر. وأطرق القاضي لحظة ثم قال في صوت أشد هدوءًا وأكثر عمقًا مما كان: الدفاع!

الدفاع

وقف المتهم لحظة مضطربًا بين صمت الجموع ووجومهم، وانتباه شهرزاد والتفات طه حسين، وقد أمسك أنفاسه وأصاخ بسمعه. ثم ارتفع صوت المتهم رويدًا رويدًا كأنما هو آتٍ من مكان بعيد:

أيها القاضي العادل

تهمة خطيرة تلك التي رماني بها المدَّعون، أو المدعيان، إذ قد سقط من الحساب اثنان ظهر كذبهما للمحكمة، وهرب اثنان ضجرًا من طول الإجراءات فيما أرى، وتنازل اثنان كرمًا ونبلًا من دون ريب، فلم يصمد في وجهي غير ملك ووزير! وهذا شرف عظيم!

قبل أن أبدأ دفاعي، أود أن أبدي أسفي لهذه الدعاوى التي أقامها عليَّ أشخاص يمتُّون إليَّ بسبب. إنه لمن المؤلم أن أراني منفردًا بين إخواني الأدباء بهذا الموقف الذي وضعني فيه اليوم هؤلاء الأشخاص المحترمون، وإني لأعجب كلما تذكرت أن غيري من الأدباء لم يلقَ من أشخاصه ما ألقى من هذا الإكرام؛ فها هو ذا «هيكل» لم ترفع عليه «زينب» قضية في المحكمة «الشرعية». وهذا «العقاد» لم يقاضِه «ابن الرومي» أمام المحكمة «المختلطة». وهذا «المازني» ترك الأموات والأشباح وأخرج على مسرح كتاباته أهل بيته وذويه من الأحياء، فلم يتذمر أحد منهم، فما بال أشخاصي أنا من دون بقية الخلق هم الذين قد أساءوا الأدب وثاروا وتمردوا، كأني يوم كتبتهم غمست قلمي في مداد ممزوج بلعاب الجن الأخضر أو ماء الفلفل الأحمر.

وبعد، فما هي حقيقة الاتهام؟ أني قد زوَّرت ولفَّقت وقذفت إذ جعلت الملك والوزير على صورة لا يرضيانها لنفسيهما؟ إنِّي أترك لعدالة المحكمة تقدير الجميل الذي أسديته إلى هذين المخلوقين بذلك التزوير والتلفيق المزعومين، إنهما قد مثَلا الساعة ورأيناهما مجرَّدين عن ذلك الثوب الذي ألبسهما إياه تلفيقي وتزويري، ماذا رأت المحكمة منهما

الآن غير ملك جاهل سفاك ووزير تافه صعلوك؟! أين ذلك التفكير الذي وضعته في رأس شهريار فارتفع قليلًا عن الأرض، فلم يحفل بـ «عبد» شهريار الواقف خلف الأستار بقدر ما حفل بما اختفى وراء عقلها من أسرار! … وهذا الوزير …

القاضي (مقاطعًا للدفاع): إنهما قد رفضا هذه الصورة على كل حال. وهي في نظرهما قبيحة!

الدفاع (يمضي): أيها القاضي! ليس من حق أحد أن يرفض صورة وضعها مبدع لأنها قبيحة أو مليحة! إن للمبدع أن يُظهِر أشخاصه على أي وجه يريد ما دام فيها حياة نابضة.

القاضي: وهل من حق المؤلف أن يشوه الأشخاص؟

الدفاع: وهل من حق الخالق أن يشوه بعض المخلوقات؟ وهل من حقي أن أطالب خالقي بأن يغير الصورة التي وضعني عليها، وأن يبْدل أنفي الذي لا يعجبني بأنف آخر، وطبعي الذي يتعبني بطبع آخر؟

القاضي: ولكن رجل الفن مطالَب بالكمال!

الدفاع: إن الكمال في الفن وفي الطبيعة هو خلق الحياة النابضة، ولا شيء غير ذلك.

القاضي: أوَيستوي عندك في الجمال حياة نابضة كحياة المشلولين والمشوَّهين في أجسامهم وعقولهم، وحياة أخرى كحياة «ألسبياد» الجميل الجسم، السليم العقل، و«هيلين» البديعة الحسن الذكية الفؤاد؟!

الدفاع: سيدي القاضي! إنك تضيق عليَّ الخناق وتحاسبني حسابًا عسيرًا.

القاضي (باسمًا): ألست تريد قضاء «الزمن»؟!

الدفاع (يفكر مليًّا): نعم، صدقت يا سيدي. إن الجمال هو كمال الكمال. هو الحياة النابضة الصحيحة المتناسقة المصفَّاة من عيوب النقص والتشويه، مرت عليها الطبيعة بيد التجربة والأستاذية على مدى أحقاب الأحقاب! ولكن … من ذا يزعم أن هذا «الجمال» في مقدورنا نحن الآدميين في كل حين؟! وهل هو في مقدور «الطبيعة» في كل حين؟! كم مثلًا من أمثلة الجمال الكامل في «الجسم والقلب والعقل معًا» استطاعت الطبيعة أن تخرجه منذ آدم حتى اليوم؟ وبأي ثمن صنعت تلك الآيات؟ وبعد كم من التجاريب؟ أليس الثمن ملايين الملايين من المخلوقات العادية والناقصة والمشوهة على مر الأحقاب والعصور؟ أليس النقص والتشويه والتكرار تجاريب الطبيعة الفاشلة؟ إن الطبيعة لتتكبَّد العناء هي أيضًا في خلق الجمال! فهي لا تختلف كثيرًا عن «فيدياس»؛ إنه كذلك قد أسقط من فتات الرخام الضائع والتماثيل الناقصة أكوامًا على أكوام قبل أن يبرز من بينها آيته الفنية

«بالاس»، وما لي أفرق بين الطبيعة وفيدياس، كأن الإنسان شيء مستقلٌّ عن الطبيعة؟! إنه جزء منها، خاضع للقانون الذي يسيرها، وذلك القانون وحده هو الكامل المنزَّه، لا نقص فيه ولا تقصير، وهو الذي دبر لها وأراد هذا القصور. فإذا كان الكمال أو الجمال نادرًا في الطبيعة على قوتها وعظمتها، فإن العمل الفني الكامل هو عند البشر أقل وأندر.

ولأتحدثن الآن عن نفسي قليلًا، وأنا بين «يدَي» الزمن، فأقول إنِّي ما زعمت يومًا ولن أزعم أني صنعت من هؤلاء الأشخاص «المدعين» شيئًا يقرب كثيرًا أو قليلًا من الجمال الفني، وإن كنت صنعت ذلك لما عرفت، فإن صانع الجمال لا يراه، ومن دنا من قمة الكمال أصابه الدوار ففقد شيئًا من إدراكه لما يصنع ولقيمة ما يصنع، وأصبح شأنه شأن أولئك الصوفيين الذين يقفون بأعتاب «الله» بعد صعود طويل وجهد شاق، فيغمرهم ضباب النشوة، فإذا هم لا يرون شيئًا ولا يميزون بعقولهم شيئًا.

ولما كنت الآن على ثقة بأني لا أشعر بدوار ولا بضباب، فإني ولا جدال بعيد عن قمة «الكمال». وكل ما أزعم لك يا سيدي القاضي في شأن عملي هذا أني كنت دائمًا حسن النية، سليم الطويَّة، لا أملُّ السير بوسائلي الضعيفة، صاعدًا في ذلك الطريق الوعر الطويل المؤدي إلى هيكل «الجمال» العظيم، دون أن أطمع يومًا في رؤيته، ولو عن كثب، إنما أقضي حياتي أمشي وأتعثر في أشواك هذا السبيل إلى النهاية، وعزائي الوحيد أني أعيش في طريق «الجمال» وأقضي نحبي فيه، فإذا رفق رب «الهيكل» بي، وألفاني يومًا خليقًا أن يضع على قبري زهرة من حديقته، فذاك كل جزائي، وغاية ما أطمع فيه … وأخيرًا يا سيدي القاضي، لست أملك إلا أن أعهد إليك باسمي وشرفي وأمري فاحكم بما ترى، وأنت إذا حكمت فإنك تحكم بالحقِّ والعدل، ولست أخاف وجهَيك؛ فإن فيك أيها «الزمن» «سواد» الدهماء، وفيك «نور» العلماء. وبهذا الحكم المزدوج على الأشياء لا يفلت حقٌّ من مصفاتك.

جلس المتهم وقد خيم الصمت العميق في ذلك الليل الساجي على الجموع الساهمة. وأطرق القاضي مليًّا، ثم رفع رأسه:

النطق بالحكم عند الفجر، وليُفرَج فورًا عن المتهم بالضمان الشخصي!

فقام «الحاجب» ونادى في قفصه: من يضمن المتهم؟

فنهضت شهرزاد صائحة: أنا أضمنه وأحفظه في قصري حتى الفجر.

فتحرك «القاضي» في جلال رهيب وقال ملتفتًا إلى شهرزاد: لا تقبل المحكمة ضمانك؛ لأنها لا تأمنك عليه.

فبُهتت شهرزاد ووجم الحاضرون، ولكن القاضي لم يُطل صمته، بل قال مخاطبًا شهرزاد: ولأنك متهمة مثله.

غضب شهرزاد

قلت وقد اتجهت إلى القاضي واثقًا بأنه سيرضى بما أقول: فأنا أكفله إن أذنت يا سيدي. قال القاضي في لهجة حلوة مرة، فيها الحنان والسخرية معًا: لو أمنتك على نفسك لأمنتك عليه. فسُقط في يدي، واستحييت من أن أُفجأ بما فُجئت به شهرزاد، وانتظرت في الوقت نفسه أن أسمع من توجيه التهمة إليَّ وأمري بالتهيؤ للدفاع، ولكن صمت القاضي اتصل حتى قطعه صوت مخيف اضطربت له الأرض وامتلأ به الجو، وأوشك الجبل أن يتصدع منه فرَقًا ورعبًا، وتهالك له توفيق ففارقته قواه، وسقطت من يده عصاه، وخر كأنه مغشيٌّ عليه، وإذا هو الحاجب يقول في قصف الرعد كله: إليَّ يا مولاي فأنا زعيم به حتى يتصرَّم الليل. ثم ثاب الهدوء، وثابت معه إلى المتهم قوتُه، وعاد إليه رشده، فسأله القاضي: أتقبل هذا الكفيل؟ قال مضطربًا متهالكًا: على ألا يُسمعني صوته، فإني أخشى ألا أعود إلى أهلي كما فارقتهم سميعًا. قال الحاجب في صوته القاصف: لا بأس عليك. قال المتهم متهالكًا متمالكًا: أوَبأس أشد من هذا البأس؟!

وصعدت في ذلك الوقت من أدنى الجبل السحابةُ تسعى في هدوء ولين، فجعلت تغمر المتهم قليلًا قليلًا وهو يضطرب اضطرابًا عنيفًا، ويصيح صياحًا شديدًا يريد أن يخلص منها فلا يجد إلى ذلك سبيلًا، وما هي إلا لحظة قصيرة حتى أخذته من جميع أقطاره، فإذا شخصه يَخفى، وصوته ينقطع، والسحابة تمضي مُصعِدة أمامها في مثل ما أقبلت به من الهدوء والوقار.

والتفتُّ فلم أجد حولي إلا شهرزاد وغلامها الأسود وإلا صاحبي، وقد أطبق على المكان صمت ليس أقل عمقًا ولا كثافة من هذا الليل الذي غمر كل شيء، على أن ألفاظ شهرزاد كانت تخترق هذا الصمت العميق كما كانت أشعة النجوم تنفذ من هذا الليل الكثيف، وكانت شهرزاد مُغضَبة أشدَّ الغضب، مَغيظة أحدَّ الغيظ، ساخطة على هذا القاضي الذي

لم يكفِه أن رد كفالتها في غلظة وعنف حتى اجترأ عليها وتجاوز حقه فيها، وزعم أنها متهمة كتوفيق يجب أن تدافع عن نفسها كما دافع هو عن نفسه، وكانت تقول في صوتها الفضي الجميل: من هذا الذي يجرؤ على أن يتهمني؟! أو من هذا الذي يملك أن يقفني أمام القضاء؟! ومن هذا الذي يستطيع أن يُكرهني على ما لا أريد؟! ثم ترسل في الجو قهقهة عذبة متصلة وهي تقول: لم يبقَ إلا أن تدافع شهرزاد عن نفسها وتقف من القضاء موقف المجرمة، وهي التي أخذت الناس بالجد والعبث، وعلمتهم الاتهام والدفاع. سيعلم هذا القاضي كيف أعصيه وكيف أزدريه وكيف أمتنع عليه، ثم تلفتت إليَّ وهي تقول في شيء من الحنق تكظمه وتخفف من حدته: أرأيت إلى مشورتك يا سيدي كيف تعرِّضني لما لم أتعرض له قط؟!

قلت في أناة وهدوء: إن شخصك الخالد يا سيدتي قد يكون بمأمن من هذا البرد المهلك الذي لا نقوى نحن على احتماله، فإن شئت أن ترديه عنا أو تحمينا منه قبل أن نأخذ في هذا الجدال الذي أظن أنه سيكون شاقًّا طويلًا.

قالت خجلةً متضاحكة: لقد أصبت. ما أدري كيف ذهب عني هذا، ولم تكد تلتفت إلى غلامها الأسود حتى تغير من حولنا كل شيء، وإذا نحن في غرفتها الهادئة الجميلة من قصرها المسحور، وإذا هي مستلقية بين وسائدها، وإذا الخدم يسعون بين أيدينا بما يردُّ إلينا القوة والنشاط.

قالت شهرزاد: الآن يا سيدي وقد أتيحَ لك الأمن والدفء والهدوء تستطيع فيما أظن أن تتحدث إليَّ برأيك في هذه الجراءة التي ما كنت لأتعرض لها لولا أني لقيتك وقبلت رأيك في أمر صاحبنا المسكين.

قلت: مهلًا، أزيلي قبل كل شيء من بيننا هذه الخصومة التي تخلقينها وتجنين بها عليَّ، فإنها خليقة أن تصرفنا عما يجب من تدبير أمرك، وأنت تعلمين أن الزمن لا يذعن لما نريد، وأنه كثير التقلُّب والجموح، يطيل الليل إن أراد، ويقصره إن أحبَّ، إنما هي حركة منه يدفع بها النجوم دفعًا فإذا الليل ينجلي، أو سكون منه يمسك به النجوم في الجو فإذا الليل ثابت مقيم، وما أدري أراغب هو في تعجيل القضاء فيقصر الليل، أم راغب هو في الإبطاء به فيمسك أستاره أن تنكشف، ويمنع ظلمته أن تزول!

قالت وقد رفعت كتفيها الجميلتين، وأشاعت في الغرفة ضحكة ساحرة ساخرة: ما أشد ما تخاف الزمان، وما أعظم ما تُكبِره، وما أكثر ما تحسب له الحساب! هوِّن عليك، إن أمره أيسر مما تظن، وإن تقلُّبه أدنى إلى العبث منه إلى الجد، وإنه يستطيع أن يتهم،

ويستطيع أن يقضي فلا يغير اتهامه شيئًا ولا يُحدِث قضاؤه جديدًا. إنما هو كائن مغرور، قيل له إنه قوي فظن بنفسه القوة، وخُيل إليه أنه عظيم فانتحل لنفسه العظمة، بل خُيل إليه أنه موجود فأثبت لنفسه الوجود.

قلت وقد نهضت يظهر على وجهي الغضب، ويضطرب في قلبي الخوف: سيدتي، إن كنت مُصرة على المضي في هذا الحديث فدعيني أنصرف؛ فإني لا أحب مخاصمة الزمن ولا أقدر عليها. وإنك لتخدعين نفسك وتكلفينها أكثر مما تطيق، فقد قبلت الاحتكام إلى هذا القاضي، أترين أنك كنت لاعبة؟ ثم ما يغضبك من اتهامه إياك وأنت قد قبلت حكمه وسعيت إلى مجلسه، وما زلت تنتظرين قضاءه، وتخافين في أعماق نفسك أن يكون قاسيًا على صديقنا البائس؟

قالت في رفق: عد إلى مجلسك يا سيدي، فما دفعني إلى ما تكره إلا ما أجد في نفسي من الحفيظة والمَوجدة. وما كنت أقدِّر أن أُهان وأُتهم جزاء على ما قبلت من الاحتكام إلى الزمن والرضا بقضائه بين توفيق وتلك الأشباح.

قلت: بل جزاء على عبثك به واستطالتك عليه فيما كتبت إلى أسيرك الذي أُخذ منك وأنت كارهة.

قالت: ومهما يكن من شيء فأنت أصل الخصومة التي أخذت نفسي تضيق بها، على قلة ما تضيق نفسي بالأشياء.

قلت: فهذا هو التجني الذي لا أطيقه ولا أرضاه، وإنك لتعلمين أني ما سعيت إليك إلا بعد أن دعوتني، وما اهتديت إلى قصرك هذا إلا حين دللتني عليه، بل حملتني إليه حملًا واختطفتني إليه اختطافًا، أفتعقِّدين الأمر وتخلقين المشكلات، ثم تلقين تبعة ما تفعلين على الأبرياء والآمنين الذين أقبلوا يصطافون، فنصبت لهم من الشباك والأشراك ما ورطهم في هذه القصة المعقدة التي لا يعرفون لأنفسهم منها مخرجًا؟!

سمعت شهرزاد هذا الحديث هادئة، ثم فكرت فيه مُغرِقة في التفكير، ثم رفعت رأسها إليَّ وهي تقول: ربما كان هذا كله حقًّا، ولكن الأمر ما زال أيسر مما تظن، فأنت واثق بأن القاضي سيعدل في أمر صاحبك، وإذن فستذهب إلى مجلس القضاء وستسمع الحكم، فإذا بُرئ صاحبك عدت معه آمنَين إلى حيث تستأنفان اصطيافكما كأن لم تلقيا شهرزاد ولم تعرفا القصر المسحور.

قلت ساخرًا: ما أيسر ما تقولين ذلك، كأنك تجهلين أن لقاءك فتنة وأن قصرك سحر، وأن من دنا منك لا يستطيع أن يطيل النأي عنك، وأن من خرج من قصرك لا يستطيع

أن يسلو عن الرجوع إليه! هل لك أن تدَعي هذا الدلَّ وتُعرضي عن هذا التيه حتى نفرغ من هذه القصة التي طالت واشتد تعقدها؟!

قالت: صدقني إني لأبعد مما تظن عن الدلِّ والتيه، ولكن أُكبِر نفسي وأنفسكم أيضًا من أن أخضع لسلطان وإن كان سلطان الدهر، ومن أن أقبل اتهامًا أو أتهيأ لدفاع.

قلت: ومع ذلك فأنت متهمة، ولا بد من أن تدافعي عن نفسك.

قالت: كلَّا، إن لي عن ذلك مندوحة، فأنت تعلم أن هناك أستارًا يكفي أن تُرفع، وأن تُسدل بعد أن أَجوزها؛ وإذا أنا بمأمن من كل عادية لا يبلغني شيء، ولا يصل إليَّ أحد وإن كان الزمان.

قلت: نعم ومن وراء هذه الأستار كنت تريدين أن تلقي توفيقًا.

قالت: كنت أريد أن أحفظه.

قلت: فإنك لا تجهلين أن ما وراء هذه الأستار يُسمى الموت بالقياس إلينا، ويُسمى النسيان بالقياس إليك، أفترضين أن تسدلي أستار النسيان بينك وبين الأحياء؟

قالت: لقد بلوت الأحياء حتى ضقت بهم، وما أكره أن أستريح منهم دهرًا، فلينسوني ولْأنسَهم، وما أظن أني سأشقى بهذا كما يشقون.

قلت: ما كنت أعرف فيك هذه القسوة، إنك لتعلمين أنك عزاء الأحباء وسلوتهم، وأنك رحمة البائسين ونجاة الهالكين منهم. ومع ذلك فلن يخلِّي الزمن بينك وبين ما تريدين للأحياء من هذه الحياة الخشنة الجافة التي يملؤها الجحيم والعذاب المقيم.

قالت وقد نهضت مغضَبة: الزمن أيضًا؟ فأنا إذن مثلكم أمَة له، مذعنة لسلطانه لا أستطيع منه فرارًا.

قلت:

ولو طار جبريل بقية عمره … … … … … … …

قالت وهي لا تكاد تملك نفسها:

… … … … … من الدهر ما اسطاع الخروج من الدهرِ

سخف هذَى به شاعر من شعرائكم ظنه وظننتموه فلسفة، ولم تعرفوا أنه الهراء الذي ليس وراءه شيء. سترى يا سيدي أأستطيع الخروج من الدهر أم لا أستطيع. ثم

دقت يدًا بيد، فأقبل غلام أسود فقالت له: سترعى هذا السيد حتى يفرغ صاحبه من قضيته، ثم تبلغهما مأمنهما، ثم تلحق بي وراء الأستار.

قال الغلام: الأستار يا سيدتي؟ إنها مأخوذة علينا.

قالت: من أخذها؟

قال: جنود القاضي، إنهم يقومون دونها منذ وجَّه إليك ما وجه من حديث.

قالت: فستنتظرني إذن في القصر حتى أعود.

قال: تعودين من أين يا سيدتي؟

قالت: من وراء الأستار. ألست قد زعمت أن الطريق مأخوذ عليكم؟

قال: وعليك أيضًا يا سيدتي!

هنالك ثار ثائرها، فنهضت ولطمت خد العبد، وإذا هو يجثو بين يديها مستغفرًا، ولكنها مضت أمامه لا تلوي على شيء، وتبعها العبد مستخذيًا خجلًا. ولبثتُ في هذه الغرفة مضطربًا بين الحيرة والدهش والغضب، لولا أن صاحبي أقبل يهمس في أذني: لقد انتصف الليل. ولم أكد أسمع هذه الجملة حتى انجلت عني غمرة هذه القصة كلها، وذكرت الفندق ومن خلَّفت فيه، ونهضت عجِلًا قلقًا أسأل صاحبي: ومن لنا بالعودة وكيف الطريق إلى الفندق؟ وماذا عسى أن يُظن بنا من الظنون؟

ولم يكد صاحبي يهمُّ بالجواب حتى أقبلت شهرزاد شاحبة غاضبة لا تملك نفسها من الغضب والغيظ فتلقي على صاحبي نظرة يطير لها لبُّه، فيرجع أدراجه مسرعًا، ثم تتحول إليَّ قائلة وقد تجاوز السخط بها حدَّه: إنك تفكر في العودة إلى أهلك. كلَّا يا سيدي، يجب أن تعلم أني أسيرة في هذا القصر، أسيرة قاضيك الذي اخترته ووثقت به، فلتكن أنت أسيري، ولن يُخلَّى بينك وبين الحرية حتى يُخلَّى بيني وبين النسيان!

حكم الزمان

فلما تقضي الليل إلا أقلَّه وكادت توالي نجمِه تتغوَّرُ

يمَّمنا مجلس القضاء، فكنا السابقين إليه، ولبثنا لحظات مأخوذين يبهرنا هذا الجلال الذي لا يرقى إليه الوصف؛ جلال الصمت قد امتدت أرجاؤه حتى طبَّقت الجو كله من حولنا، لا تشقه إلا هذه الموسيقى الضئيلة المتهالكة التي كانت تضطرب فيه اضطرابًا متصلًا حلوًا، فيه أمن للقلوب ولذة للنفوس، والتي كانت تصدر عن هذه الحشرات الضئيلة المنبثَّة المستخفية في ثنايا ذلك العشب الكثيف، وجلال هذه الظلمة التي كانت تَروع لكثافتها وامتدادها من كل نحو وفي كل وجه، لا تشقها إلا أشعة ضئيلة متفانية، ملائمة لتلك الموسيقى الضئيلة المتهالكة، كانت تصدر من هذه النجوم البعيدة التي أخذت تجدُّ في الهرب، كأنما كانت تريد أن تبلغ مأمنها قبل أن يدركها ضوء الصباح. وكانت نفوسنا تجد في أعماقها شعورًا قويًّا بجمال حزين مُغرِق في الحزن، كأنه صورة لهذا الكون الذي كان يحيط بنا وبغيرنا، والذي كان يأتلف من مزاجين مختلفين أشد الاختلاف؛ ظلمة كثيفة قد شاع فيها صمت عميق، وأصوات نحيلة تصعد من الأرض فتلقاها في الجو أشعة ضئيلة تهبط من السماء. ومع أنَّا كنا قد افترقنا مختصمَين أو كالمختصمين منذ ساعات قصار، فقد أحسست نفسي تدنو من نفس شهرزاد، وما أرى إلا أنها كانت تجد مثل ما أجد، وإذا يدانا تلتقيان، وإذا هي تسألني في صوت لم يكن أقلَّ نحولًا من بعض هذه الأصوات التي كانت تضطرب في الجو: ما رأيك في هذه الموسيقى؟ أليست باهرة للعقول ساحرة للقلوب، مُنسِية للخطوب والأحزان؟!

وأهمُّ أن أجيبها، ولكن يدها اللطيفة تضغط يدي الخشنة كأنها أنكرت صوتها فهي لا تريد أن تسمع صوتي، وكأنها تُؤْثر ألا يأخذ الحديث بيننا طريق الألسنة والأسماع، بل طريقًا أخرى هي أيسر وأقرب، وهي طريق النفوس حين تتحدث إلى النفوس في غير صوت مسموع أو جرس محسوس.

وما أدري أَلَبِثنا كذلك وقتًا طويلًا أو قصيرًا، ولكنا نشعر فجأة كأنا انتُزعنا في عنف من عالم الغيب ورُدِدنا في قوة إلى عالم الشهادة. وهذه سحابة تسعى في وقار وأناة كأنما تنزلق على الجبل، حتى إذا جازت هذا المكان الذي كنا نقيم فيه لم تقف ولم تتمهل، وإنما مضت في طريقها منحدرة، ولكنها تنحسر في لطف وظرف عن شخص نجده ماثلًا أمامنا، فإذا تبيَّناه عرفناه، وإذا هو المتهم، عليه معطفه وفي يده عصاه. وأنت تستطيع أن تسأله عن ليلته تلك التي قضاها ضيفًا على السحاب، فقد حدثنا عنها حديثًا ظريفًا طريفًا شائقًا رائقًا ما أريد أن أسوقه إليك؛ لأني أقدر حقوق الأدباء في إذاعة ما يعرض لهم من الأحداث، وما توحي إليهم به الخطوب، ولا سيما في هذه الأيام التي اشتدت فيها مطالبة الأدباء وأهل الفن بحماية حقوق المؤلفين، وما أظن أن صديقنا يبخل عليك بهذا الحديث؛ فقد سمعته يتحدث إلى نفسه — وما أكثر ما يتحدث صديقنا إلى نفسه فيسمع الناس — بأنه خليق أن يذيع هذه القصة في كتاب. وأخذت أشخاص مختلفة متباينة تبلغ هذا المكان، منها ما يصعد ومنها ما يهبط، ومنها ما يأتي عن يمين ومنها ما يأتي عن شمال، وكلٌّ صامت لا يُسمع له صوت، وكلٌّ هادئ لا تحَس له حركة. ثم يضطرب الجوُّ ويهتزُّ الجبل وتمتلئ النفوس مهابة ووقارًا؛ فقد قصف الحاجب العنيف بأن القاضي قد أخذ مكانه من مجلس القضاء.

ثم يمتلئ الجو من حولنا بصوت رقيق رفيق يدعو شهرزاد ويتهمها بأنها أهانت القاضي باللفظ والكتابة، ويسألها أن تردَّ عن نفسها هذه التهمة إن عرفت إلى ذلك سبيلًا.

فتقف شهرزاد ولا تقول إلا ألفاظًا قليلة، ولكنها قاسية بما كان يملؤها من سخرية ويترقرق فيها من مزاح، ولله ذلك الصوت ما كان أعذبه وأجمل موقعه من القلوب حين كان يذيع في ذلك الجو الرهيب نغماته الساحرة التي كانت تشيع فيه شيوع الكهرباء فتُسحر لها النفوس، وتسري لها في الأجسام رِعدة لذيذة لا تُعقِب أذًى ولا ألمًا.

قالت شهرزاد: لا أقف هذا الموقف لأدافع عن نفسي، فلست أعرف لأحد الحق في أن يتهمني بإثم مهما يكن. وأنا الحرية كلها، والحرية التي تشيع النشاط في العقول، وتذيع

الحياة في القلوب، وتبعث الحرارة في العواطف والمشاعر والأهواء. أنا الحرية الخالصة التي لا تعرف حدًّا ولا تنتهي إلى غاية ولا أمد، ولا ترجو لشيء ولا لأحد وقارًا. أنا الحرية الطاغية التي يظلم كل من يحاول أن يحدَّ من طغيانها، ويبغي كل من يحاول أن يكبح من جماحها؛ لأن نظام الحياة، بل نظام الكون يريدها على أنها تكون طاغية جامحة، لا تذعن لقوة ولا تؤمن لسلطان، لا أقف هذا الموقف لأتلقى اتهامًا؛ لأني فوق الاتهام، ولا أُلقي دفاعًا؛ لأني فوق الدفاع، وإنما أقف لأردَّ هذا القاضي إلى رشاده، وأعيد إليه فضلًا من صوابه، وأنعَى إليه نفسه إن مضى في غروره أو أسرف في غلوائه، فظن أنه يقدر على الحرية ويسيطر على شهرزاد، لقد أصاب المتنبي حين قال منذ ألف سنة …

قال توفيق مقاطعًا: وأنت أيضًا قد أدركتك عدوى المتنبي؟ ولكنه لم يمضِ في حديثه، فقد قصف الرعد قصفة ردته إلى السكوت.

ومضت شهرزاد في حديثها عن إصابة المتنبي حين قال منذ ألف عام:

أتى الزمانَ بنوه في شبيبته فسرَّهم، وأتيناه على الهَرمِ

قالت: وكنا نحسب أن ألف عام لا تعدل يومًا بالقياس إلى هذا القاضي، وأنه يستطيع أن يهرم على مهلٍ ويشيخ في أناةٍ، دون أن ينتهي إلى خرف ويفارقه حِلم أو يذهب عنه صواب، وكنا نظن أن آلافًا وآلافًا من السنين ستمضي قبل أن نحتاج إلى أن ننبهه بين حين وحين أنه أخطأ في الحكم أو جار عن قصد السبيل. وكنت أتهيأ لأكون منه مكان تلك الفتاة الأعرابية التي كانت تقرع لأبيها العصا تنبهه أنه جار في الحكم أو حاد عن القصد، ولكن قاضينا أسرع إلى الهَرم وأسرع الهرم إليه حتى تجاوز كل حساب، وما كان ينبغي لي أن أجهل ذلك أو أجادل نفسي فيه وأنا أرى بوادره تشيع في أقطار الأرض، وتفسد على الناس حياتهم في غير بيئة، فإذا الحرية تُضطهد، وإذا آثارها تُصادَر، وإذا العقل يُنفى من الأرض، وإذا الأقلام والألسنة تخضع بألوان القهر والمراقبة والتضييق، وإذا رسلي يعودون إليَّ يائسين بائسين يشكون زهد الناس فيهم وفيما يحملون إليهم من ثمرات الحرية التي تذيع الخصب في العقل والشعور. كنت أظن أنها أزمة تأتي الناس من إسرافهم في الحضارة، وتعرِّضهم لأخطارها وأمراضها التي تَعرِض وتزول، فإذا هي أزمة تأتيهم من أبيهم الزمان الذي فارقه الشباب، وتصرَّمت عنه الكهولة القوية، وأدركته الشيخوخة وما يتبعها من أعراض الفناء والانحلال، إلا أن أكون مخطئة وأن يكون هذا

الشيخ الوقور مريضًا ألمَّ به بعض العلة، وإذن فأنا كفيلة بعيادته والقيام على تمريضه، والطب لما يلحُّ عليه من الداء.

قال القاضي في صوته الهادئ الشائع العريض: حسبك يا شهرزاد، فقد استنار القاضي.

ثم دعا المتهم وسأله: ألا تريد أن تزيد على ما قلت شيئًا؟

قال توفيق وهو يرتعش ارتعاشًا عنيفًا: لا يا سيدي، ولكني أتوسل إليك ألا تحمِّلني من تبعات شهرزاد قليلًا أو كثيرًا؛ فإني أراها أسرفت كثيرًا، فليكن إسرافها على نفسها لا عليَّ.

قالت شهرزاد وقد التفتت إليه ضاحكة: ويحك! وكيف خنتني قبل أن يصيح الدِّيك؟

ثم غمر المجلسَ صمتٌ عميق لم يتصل إلا لحظاتٍ قصارًا، وإذا نحن نسمع صوتًا هادئًا عذبًا يتلو علينا الحكم، ولكننا لا نتبين من أين يبلغنا هذا الصوت.

قال الصوت: والآن وقد سمعنا ادعاء المدَّعين ودفاع المتهم الأول، ولاحظنا اعتزال من اعتزل وعدول من عدل عن الاتهام؛ نقرر أن من حقِّ الأديب أن ينشئ أشخاصه كما يريد هو لا كما يريدون هم، بل إن من الحق على الأديب أن يتلقى أشخاصه كما يؤديهم إليه فنه، لا يغير من صورهم التي تلقَّاهم عليها ولا يبدِّل، ولو حاول ذلك لما استطاعه ولما وجد إليه سبيلًا. ولمن شاء أن ينكر عليه أو على فنه هذه الصورة كلها أو بعضها، وأن يعيب عليه فنه أو على فنه ما يكون فيها من ضعف أو نقص أو تشويه، وما ينبغي لهذه الأشخاص نفسها أن تثور بمُنشئها أو تمكر به أو تكيد له أو تتألَّب عليه، أو تبغي له سوءًا، أو تستنزل عليه عقابًا، فإن فعلت فهي طاغية يجب أن تُرد عن طغيانها، وباغية يجب أن تُصد عن بغيها، وجامحة يجب أن يُكبح جماحها، ومُنشئها وحده هو القادر على ذلك، وسبيله إليه ترقية فنه وتجديده، واصطناع الأناة والدقة والإتقان في التصوير والتعبير جميعًا. ولما كان المتهم قد أعلن تواضعه واعترف بقصوره، وسلَّم بأنه في حاجة إلى أن يسعى ويطيل السعي، وإلى أن يجدَّ ويُمعِن في الجد لا ليبلغ الكمال، بل ليدنو منه، ولما كنا نُقدِّر للمتهم تواضعه وطموحه إلى الكمال، واعترافه ببعد الأمد أمامه، ولما كنا نحرص على أن نمنحه المعونة على ما يريد من الرقي الفني، فقد قضينا أولًا بإسقاط دعوى المدعين وتبرئة المتهم مما وُجِّه إليه، ثانيًا بنفيه عن سالنش وعن الأرض الفرنسية كلها شهرًا، وإرساله إلى سالزبورج حيث الفصل الموسيقي، وحيث يستطيع أن يجد من جمال الفن ما يُدنيه خطوة أو خطوتين من الكمال.

ثم انقطع الصوت لحظة أتاحت لتوفيق أن يدفع من صدره آهة عميقة تصوِّر ابتهاجه بما حُط عنه من ثقل، وما أُزيل عنه من حرج، وما مُهد له من سبب لترك سالنش وسمكها الذي لم يصطده إلى سالزبورج وموسيقاها الرائعة الحلوة معًا، ولكن الصوت يعود فيملأ علينا الجو من جميع نواحيه قائلًا: أما المتهمة الثانية، فبعد أن سمعنا دفاعها الذي تزعم أنه نعي علينا وتأديب لنا؛ نقرر أن من حقها أن تستمتع بطبيعتها التي هي الحرية الخالصة، ولكن في غير إسراف ولا جموح؛ لأن الإسراف في الحرية قتل لها واعتداء عليها. ومن حيث إنها قد تجاوزت الحد وجارت عن القصد، واستطالت على السلطان بعد أن اطمأنت إليه، وثارت به بعد أن اعتمدت عليه في إقرار العدل، ومن حيث إنها بهذه السيرة تؤذي نفسها، وتؤذي الذين يتبعونها من رسلها الخالدين وأشياعها الهالكين، ومن حيث إنَّا نحرص على الحرية، ونرفق بها من أن نخلِّي بينها وبين هذا الطغيان الخطر، ومن حيث إنَّا مع ذلك نقدر حاجة الحرية إلى أن تُمد لها الأسباب ولا يشتد عليها التضييق؛ فقد قضينا بأن يلزمها الأرق المضني الذي تعانيه إلى آخر الصيف.

هنا نهضتُ مندفعًا في شيء من العنف غير قليل قائلًا في صوت لم أملك تهدئته ولا تنظيمه: إذن فلن تأرق وحدها ما بقيتُ قريبًا من القصر المسحور.

قال توفيق في صوت المنكر الدهِش: ما رأيت مثلك رجلًا يعترف بالسلطان ثم يتحداه ويخرج عليه!

والتفتنا فإذا كل شيء قد عاد إلى هيئته قبل أن ينعقد مجلس القضاء؛ ظلمة مطبقة تضطرب فيها أشعة النجوم المنهزمة، وصمت عميق تتردد فيه أصوات الحشرات المتغنية. وتوفيق حائر الطرف يهز رأسه عجبًا ودهشًا واستغرابًا، ولسانه يتردد في فمه: حقًّا لا أدري أين أنا وماذا يُراد بي!

وشهرزاد تقول في صوتها العذب: أنت على قمة الجبل الذي طالما تمنَّيت أن تصعد فيه، وطالما غرَّك به الغرور، فظننت أنك تستطيع أن تبلغ قمته ثم تنتهي إلى حضيضه في ساعات، ولا يُراد بك إلا ما تحبُّ لنفسك وما يحبُّ لك الزمن من الاستماع للموسيقى في سالزبورج.

قال توفيق: ولكن كيف السبيل إلى سالنش لأركب القطار؟

قالت شهرزاد: لا بأس عليك، سنبلغك مأمنك، وإن خنتنا قبل أن يصيح الدِّيك.

وهنا أراد توفيق أن يعتذر، ولكنها أخذت عليه طريق الاعتذار قائلة له: بل أنا المعتذرة إليكما، فقد كلفتكما أهوالًا وحمَّلتكما أثقالًا، وضيعت عليكما شهرًا من أشهر الصيف.

قلت: لم تضيعي علينا شيئًا يا سيدتي، بل رفهت علينا، وأرحتنا من سخف الحياة بما فيها من جدِّ الأمر وهزله.

قالت: من يدري، لعلك لم تخطئ، ولعل ما في هذه القصة من سخف لا يلائم ما أَلِف الناس من سخف الحياة الجادة والهازلة أن يسلي غيركما من الناس عن أثقال الدهر وهموم الحياة، فما أظن أن الناس تعوَّدوا عندكم أن يروا أديبين يعبثان بنفسهما وبالأدب ... أذيعا هذا اللهو إن شئتما؛ فمن يدري، لعل اللغو خير ما في الحياة!

وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

هنداوي